الفريضة الخامسة

مراجعة وتقديم
أبو الحسن عبد الرازق

دار الأسماء
﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾

الطبعة الثانية
مصححة ومنقحة
١٤١٣هـ
١٩٩٢م

دار الأسماء : الملك فيصل - ناصية الليبني - الهرم - الجيزة ت: ٣٨٧٣٧١٩
أرض اللواء المهندسين - تقسيم المستشارت: ٣٤٤٨٨٠٥

هذا الكتاب ترجمة عن الإنجليزية لكتاب

Ha jj

By Dr. Ali Shariati
Translated
Beazania Ali & Najla Denny

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبراهيم إِلا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾

البقرة: ١٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المراجع

★ **المؤلف ....**

★ **الكتاب ....**

★ **الترجمة ...**

★ **المراجعة ..**

★ **مختصر لمناسك الحج العمرة ...**

***

المؤلف

هو الدكتور على محمد تقى شريعتى

مواليد العام الهجرى ١٣١٢

الموافق فى التقويم الميلادى شهر ديسمبر (كانون أول) ١٩٣٣.

فى قرية «مزينان» القريبة من مدينة مشهد في محافظة خراسان بإيران...

كان أبوه عالماً مجاهداً وكاتباً معروفاً ومفسراً للقرآن الكريم، عمل على تنقية الأصول الإسلامية مما علق بها..

تفتحت عينا مؤلفنا على مكتبة والده حيث شب عقله وتفتحت روحه ..

أكمل مرحلتى التعليم الأولى والثانوي بمشهد ثم التحق بكلية تدريب المعلمين وما إن بلغ الثامنة عشرة حتى عمل مدرساً ..

فى عام ١٩٥٥م دخل كلية الآداب بمشهد وتزوج عام ١٩٥٦ من زميلته فى الدراسة السيدة بوران شريعة رضوى ..

تخرج من الجامعة بامتياز فى الآداب نال على إثرها بعثة إلى فرنسا عام ١٩٥٩م.

فى فرنسا درس الأديان وعلم الاجتماع والأدب، وحصل على شهادتين للدكتوراه: إحدهما فى تاريخ الإسلام والأخرى فى علم الاجتماع.

فى عام ١٩٦٩ تأسست فى طهران حسينية الإرشاد لتصبح بعد فترة مركزا لنشاط على شريعتى حيث ربى فيها جيل كامل من الشباب..وتم إغلاقها عام ١٩٧٣م.

اعتقل ثلاث مرات: عام ١٩٥٨لمدة ستة أشهر ، وعام ١٩٥٦ لمدة ستة أشهر ، وعام ١٩٧٣ هو ووالده بعد إغلاق حسينية الإرشاد لمدة ثمانية عشر شهراً، هى أقسى فترة اعتقال ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخل المسؤولين الجزائريين عام ١٩٧٥م..

بعد أن سدت فى وجهه السبل في إيران غادرها إلى لندن حيث قتل بعد شهر من وجوده فيها بطريقة غامضة مثل التى اعتاد القيام بها جهاز السافاك وكان ذلك في ١٩ يونيو ١٩٧٧ حيث عثر على جسده المسجى وحيداً فى مسكنه، وإلى جواره رسالة لم تكتمل إلى والده .

نقل جثمانه إلى سوريا ليدفن إلى جوار مرقد السيدة زينب .. تقبله الله شهيداً فى الخالدين..

لعبت أفكاره وجهوده دوراً كبيراً فى التعبئة الفكرية والسياسية التي سبقت الثوره الإسلامية إلى حد أنه كان يسمى في أوساط الشعب «معلم

الثورة» وكان يذكر بعد الإمام الخميني مباشرة وقد قال عنه مهدى بازركان : (لولا جهود الدكتور علي شريعتى لما حدثت الثورة في هذة الفترة بالذات، أو لما حدثت بهذا الطريقة)

الكتاب

هو نص أدبى يحتوى على نظرة فريدة وصياغة مبتكرة تصل بالقارىء،إلى درجة الدهشةوالإعجاب.. تناول الفريضة الخامسة في الإسلام بمدخل جديد ونظر مجتهد مبدع،... وعمق وفهم متميز لهذه الشعيرة، جمع المؤلف فيه خيوط فكره الاساسية ..

وهو يصف الحج فيقفول (هو الإسلام فى حركة وليس فى كلمات) ..

وهو يسير معك في الزمان والمكان، ولا يترك شاردة ولا واردة إلا وأخرج منها المعنى الفذ الذى لاتملك إزاءه إلا الموافقة والاتباع المصحوب بالشعور بالاعتزاز والأمل فى مستقبل إسلامى مشرق..

إن هذا الكتاب يحتوى على كثير من الأفكار التي تحتاج لجهد لكى تفهمها، وقد تعاود قراءة الفقرات أكثر من مرة فتخرج كل مرة بمعانى جديدة .

وقد صرح المؤلف أثناء الكتاب بهذا المعنى مباشرة مرة، وأشار إليه مرات ..

وأستشهاد المؤلف بالآيات القرآنية للتدليل على الأفكار فيه من الطرافة والجده الشيء الكثير..

علينا أن نقرأ هذا الكتاب – وكل مؤلفات شريعتى- و نحن على استعداد للتغيير على كافة الأصعدة الذاتية والبيئية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ،.. الخ .

إن الانطباع الذى سوف يخرج به قارىء هذا الكتاب:

إذا كان لم يحج فإنه سيكون أكثر شغفاً لأداء هذه الفريضة..

وإذا سبق له أن حج فاءنه سيشعر أنه لم يحج، وأن عليه أن يذهب مرة أخرى بعد قراءته لهذا الكتاب .

إنه كتاب بكل المقاييس حى نابض ينفخ من جديد روح الله فى الإنسان.

الترجمة

الترجمة فن صعب.

وتزداد الصعوبة إذا كانت لكاتب عملاق مثل الدكتور على شريعتى (أنجح مفكر فى العالم الثالث)[1] .

وتزداد الصعوبة إذا كانت لكتاب مثل كتاب «الفريضة الخامسة» الملىء بالرموز والأفكار والمعانى الفلسفية ومزجها بالواقع وصياغتها هذه الصياغة الفريدة..

فإذا كانت الترجمة عن نص غير النص الأصلى[2] الذى يحتوى على هذه المعانى الموغلة فى الرمزية تصبح الترجمة لوناً من ألوان المغامرة والسير على الأسلاك.

ورغم كل هذه الصعوبات فقد بذل المترجمون - من الفارسية إلى الإنجليزية ومن الإنجليزية إلى العربية- جهدهم بإخلاص وتفان لنقل روح المعاني والصور الذهنية التى أراد الشهيد توصيلها للقارىء، وقد أوصوا كل قارىء أن يقرأ هذا الكتاب جملة واحدة دون تنجيم أو تقطيع ..

ولكن قراءة أى عمل مترجم بلغته الأصلية له مذاق خاص ووقع مختلف..

كما فى أعمال الشاعر الفيلسوف العلامة محمد إقبال الذى ترجمت

---

(١) كما قال عنه السيد محمد مسجدي جامع عند الحديث عن دوره في الثورة الإسلامية في إيران.

(٢) النص المنقول عنه النص الإنجليزي المترجم عن النص الأصلي وهو النص الفارسي.

أعماله من الأردية إلى العربية، فإن بني جلدته يصفون الموسيقى الداخلية والمعانى الجليلة بلغة الأرد بحيث تعجز أى ترجمة أخرى مهما كانت متقنة عن نقل هذا الإعجاز!..

المراجعة

قد يتعجب البعض من قيامي بمراجعة هذا الكتاب والتقديم له قائلين:

أتراجع هذه الكتاب لهذا المؤلف وأنت السني وهو الشيعى ؟!..

أتراجع هذا الكتاب وفيه من الأفكار ما يتعارض مع فقه أهل السنة وأنت المناصر للسنة والمنافح عنها والمحارب للبدعة؟! .

أتراجع هذا الكتاب وصاحبه يذكرون اسمه مباشرة بعد آية الله الخمينى كمعلم لثورة إيران؟ .

وكثير من قبيل هذه المعانى ..

وأحب أن أوضح– أولاً – شيئا مهماً وهو أن مراجعة نص للدكتور الشهيد على شريعتى لاتعنى بالضرورة الاتفاق معه فى جميع وجهات نظره وآرائه أو المناداة بالأخذ بها كما هى .. كما أن عدم الاتفاق معه على وجهة نظر معينة لا يعنى التقليل من أهمية هذا المفكر الإسلامى الثورى ولا من دوره الريادى ..

هذا من ناحية ..

ومن ناحية أخرى فإن الدكتور على شريعتى كان مثالاً فى فكره للأمانة العلمية المنزهة عن التعصب للبيئة أو المذهب، وقد ظل–طوال حياته القصيرة – يحض ويدعو إلى وحدة الأمة الإسلامية بدفتيها : السنة والشيعة.. وهو ماندعو إليه!

وقد اتهم هذا المؤلف نتيجة لأفكاره من قبل بعض الشيعة بالوهابية وخيانة الإسلام وإدخال البدع فيه والزندقة.. إلخ

هذه التهم التى تعود عليها الدعاة:

﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم ونبلوا أخباركم﴾[1]

ونحن– أخيراً– رجال مبادىء، وسياستنا سياسة شرعية، نسالم ونحارب فى إطارها أما المواقف السياسية الغير شرعية . المواقف السياسية الفاسقة التي لها معايير غربية لا تستهدف مصالح الأمة فنخالفها ونناقضها لأن الله أكبر.

مختصر مناسك الحج والعمرة

الحج فى اللغة : القصد، وقال الخليل : كثرة القصد، وفى الشرع عبارة عن: قصد البيت للأفعال ..

يبدأ الحج أو العمرة بالإحرام وهو نية الدخول في حج أو عمرة، وكل عبادة لها إحرام وتحلل، وللإحرام ثلاثة وجوه:

١– الإفراد : هو أن يحرم بالحج وحده ويفرغ منه ثم يحرم بالعمرة .

٢– التمتع : أن يحرم بالعمرة من ميقات بلده ويفرغ منها ثم يحرم بالحج من مكة (وهو موضوع كتابنا هذا)،و سمى متمتعا لأنه يتمتع بين العمرة والحج بما كان محرما عليه.

٣– القِران : أن يحرم بالحج والعمرة معاً فتندرج أعمال العمرة فى أعمال الحج ويتحد الميقات.

ويجب قبل الإحرام – حتى يقبل النسك– المبادرة بالتوبة من الذنوب، ورد المظالم ومصالحة الخصوم وتخلية نفسك من سى ء الأخلاق وتحليتها بأحسنها ..

وكذلك يجب – قبل الإحرام – إزالة الشعر المطلوب إزالته شرعا وتقليم الأظافر وقص الشارب والغسل بنية غسل الإحرام.

---

(١) محمد : ٣١.

الميقات : هو مكان محدد لكل قطر من الأقطار لا يجوز تجاوزه بغير إحرام لحاج ولا لمعتمر وهو رابغ لأهل مصر والشام والمغرب كله، ذو الحليفة [1] (آبار على) لأهل المدينة المنورة، **ذات عرق** لأهل العراق، قرن المنازل لأهل نجد والكويت، **يلملم** لأهل اليمن والهند.

ثم بعد غسل الإحرام يصلى ركعتين بعد أن يلبس ملابس الإحرام وهى للرجال إزاراً على الوسط ورداء على الكتفين بدون غطاء للرأس، وللمرأة ملابسها السابغة كاشفة وجهها وكفيها .

وتكون النية حسب الوجه الذى قصدت (إفراد أو تمتع أو قران) ، ويكون ذلك فى أشهر الحج : شوال ، ذوالقعدة ، عشر ذى الحجة..

وبمجرد الإحرام يحرم النساء، والطيب ، ولبس المخيط (وهو كل منسوج على قدر البدن أو بعضه) وتقليم الأظافر، وإزالة الشعر ، والتعرض للصيد البرى، وتجنب الرفث[2]،والفسوق[3] وبمجرد الفراغ من ركعتى الإحرام يشرع فى التلبية: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

ويستمر فيها حتى يدخل الحرم إن كان محرما بالعمرة فقط ثم يستأنفها بعد الطواف والسعى فى أحواله المختلفة...

ويستمر فيها حتى الشروع فى طواف القدوم إذا كان محرما بالحج أو بالحج والعمرة[4] والطواف مثل الصلاة يشترط فيه الوضوء، وينشغل فيه الطائف بذكر الله والدعاء وهو سبعة أشواط يضطبع (يكشف خلالها الرجل

---

(١) زار الحاج أو المعتمر المدينة المنورة أو لأكان ميقاته للإحرام ميقات أهل المدينة.

(٢) وهو الفحش من القول.

(٣) وهو الخروج من حدود الله تعالى الجدال والخصام مع الآخرين.

(٤) العمرة تؤدى في أي وقت من السنة ماعدا يوم الحج الأكبر (يوم عرفة)، ويوم النحر، وأيام التشريق فإنها تكره تحريما.

كتفه الأيمن وذراعه الأيمن) ويرمل[1] أثناء الأشواط الثلاثة الأولى منها وهذا فى طواف القدوم فقط .

وتحتسب الأشواط ابتداء من الحجر الأسود فيمر عليه بجميع بدنه فإذا مر ببعض بدنه لم يجزئه، وأن يكون خارجا بجميع بدنه عن حجر إسماعيل عليه السلام وعن الشاذروان، أن يوالى بين الأشواط، وأن يستلم الحجر الأسود عند الوصول إليه ويقبله فإن لم يستطع فيكتفى بالإشارة كلما وصل إليه، وأن يستلم الركن اليمانى.

فاءذا أتم الطواف فليأت الملتزم[2] ويضع صدره عليه ويفرش ذراعيه ويضع خده الأيمن عليه وليدع الله بما يشاء...

ثم ليأت مقام إبراهيم فيصلي خلفه ركعتين سنة الطواف ويدعو فيه بما يشاء.

ثم ليأت زمزم فيشرب من مائها ويتضلع[3] وينوى عند الشرب بما يشاء من خيرى الدين والدنيا فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ماء زمزم لما شرب له» ويستقبل الكعبة ويدعو بما يشاء ..

ثم يقصد الحجر الأسود فيستلمه ويقبله ويسجد عليه ويدعو الله تعالى ..

ثم يخرج من البيت من باب الصفا إلى المسعى .

والسعي : هو التردد بين الصفا والمروة سبعة أشواط الذهاب شوط والعودة شوط .

وعلى الرجال الصعود إلى الصفا والمروة والهرولة بين الميلين الأخضرين .

عند نهاية الشوط السابع عند المروة يحلق أو يقصر شعره وبهذا يتحلل

---

(١) الرمل: جرى بخطوات قصيرة مع هز الكتفين إظهاراً للقوة.

(٢) وهو حائط الكعبة بين الحجر الأسود وبابها.

(٣) التضلع الارتواء بشبع.

من ملابس الإحرام وبهذا تنتهى أعمال العمرة (وهذا أيضا للمتمتع) فاءذا أتى اليوم الثامن من ذى الحجة يغتسل (للمتمتع أما المفرد والقارن فهما على إحرامهما) ويصلى ركعتين بنية الإحرام - كما سبق - ثم يذهب مع الجمع إلى منى[1] ويصلى الظهر والعصر قصراً والمغرب والعشاء كذلك ثم يبيت بها إلى فجر يوم التاسع من ذى الحجة حتى إذا طلعت الشمس **يخرج** إلى عرفة ويستحب وهو بمنى الإكثار من الدعاء والتلبية..

الوقوف بعرفة: يستحب عند الذهاب إلى عرفات التكبير والتهليل والتلبية والمحافظة على الطهارة واستقبال القبلة والإكثار من الاستغفار والذكر والدعاء مع رفع اليدين..

ثم ينزل بمسجد نمره حيث يصلى الظهر والعصر قصراً جمع تقديم ثم يتركه إلى عرفات لأنه ليس جزءاً من عرفة ويدعو حيث يطنب في الدعاء فقد قال صلى الله عليه وسلم: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ماقلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير» حيث يمتد الوقوف من وقت الزوال يوم التاسع حتى فجر يوم العاشر ويجزيه الوقوف حتى ما بعد غروب شمس يوم التاسع والأصل الجمع بين جزء من النهار وجزء من الليل..

وبعد الغروب يتوجه إلى المزدلفة مباشرة مع التلبية والتكبير والتهليل حيث يصلى المغرب والعشاء قصراً ..جمع تأخير.

بعد الصلاة يجمع ٤٩ حصاة (أكبر من الحمصة وأقل من البندقة أى قدر حبة الفول تقريبا) ولاحرج من جمعها من منى.

ثم يبيت بالمزدلفة ..(المشعر الحرام) حتى فجر (يوم النحر) حيث

---

(١) تبعد ستة كم من الكعبة

يصلى الصبح ثم يقف بالمشعر الحرام إلى الإسفار.

إذا أسفر صبح يوم العاشر (يوم النحر) ينبغي الذهاب إلى منى(١) لرمى الجمار والإكثار من التلبية حتى قبيل رمى جمرة العقبة.. ووقت الرمي قبل الزوال، بسبع حصيات متعاقبات قائلا مع كل حصاة.. بسم الله .. الله أكبر .. رجما للشيطان وحزبه.

علي المتمتع والقارن بعد رمى جمرة العقبة أن يذبح ما معه من الهدى أو يستأجر لذلك جزاراً ثم يتحلل من إحرامه بالحلق أو التقصير فيحل له كل شيء إلا النساء.

ثم يعود إلى مكة لطواف الإفاضة وهو ركن من أركان الحج ويسمى طواف الزيارة أو طواف الركن وهو للمنفرد والمتمتع والقارن، وبعد الطواف يصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ويشرب من بئر زمزم ويتضلع، ثم يخرج من باب الصفا ليسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط للمتمتع أما المفرد والقارن فليس عليه سعى إلا إذا كان لم يسع بعد طواف القدوم.

بعد الطواف والسعى يحل للحاج كل شيء حتى النساء.

ثم يرجع من مكة إلى منى للمبيت بها ورمى الجمار، فيبيت بها ثلاث ليال تبدأ من الحادى عشر من ذى الحجة إن لم يتعجل، فان تعجل فيبيت بها ليلتين فقط.. ومتى تعجل سقط عنه رمى اليوم الثالث..

وفى كل يوم من الأيام التى يقيمها بمنى يرمى الجمرات الثلاث مبتدئا بالأولى وهى التي تلى مسجد الخيف ويقال لها الصغرى ثم يرمى الوسطى وهى التي فى السوق، ويختتم بجمرة العقبة الكبرى.

ووقت الرمى من كل يوم من الأيام الثلاثة (أو الاثنين للمتعجل) دخول

---

(١) في السير من المشعر الحرام إلى منى ينبغي الإسراع في المنطقه المسماه بطن محسر حتى إذا تجاوزته عدت إلى السكينة والوقار.

وقت الظهر ويمتد إلى غروب الشمس وتسمى هذه الأيام أيام التشريق (١١، ١٢، ١٣ من ذى الحجة) ليحرم من هناك بعمرة كما سبق أن أوضحنا.

بهذا تتم مناسك العمرة والحج للمتمتع والقارن، أما المفرد فيمكنه التوجه إلى التنعيم (مسجد السيدة عائشة رضي الله عنها بعد نهاية أيام التشريق ومتى قضى جميع الأعمال المطلوبة منه وأراد الخروج من مكة عليه أن يطوف بالبيت سبعا طوافا ليس بعده سعى، ويستحب بعده الصلاة ركعتين عند مقام إبراهيم (إن أمكن) أو فى أى مكان آخر بالمسجد وكذلك الشرب من زمزم والذهاب إلى الملتزم ويدعو ..

وأخيراً: نكرر ليس هذا إلا عرضا مختصراً جداً للمناسك لاعطاء التصور العام لهذه المناسك وهذا لا يغنى عن سؤال أهل العلم: ﴿وأسالوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

المراجع

يوم الأحد ٢٥ من شهر المحرم ١٤١٣هـ
الموافق ٢٦ يوليو ١٩٩٢م

***

مقدمة المؤلف

إن لى معرفة بالأديان ..!

بل كان ميدان دراستى هو: «تاريخ الأديان» ..!

وعبر تتبعى وبحثى للتطور التاريخى للعقائد توصلت إلى بعض النتائج، واستطعت أن أقارن بين كيفية الاعتقاد فى الماضى وكيفيته الآن ..

وبنفس القدر استطعت أن أستشرف المقارنة التى توضح أوجه الاختلاف بين العقيدة فى حقيقتها وبين واقعها.

ومن ثم فإن نتائج دراستى هذه ليست قائمة على تجربة أو شعور دينى شخصى– وبنفس القدر– ليست قائمة على تحيز أو غرض..

فإذا تسنى لى القيام بدراسة وتقويم لمدى تأثير كل دين على أساس مدى إسهامه فى سعادة الإنسان وتطوره فسوف نكتشف أن نبوة الأنبياء السابقين للنبى الخاتم محمد ﷺ لم تصل فى تقدميتها وقوتها وفاعليتها ووعيها لنبوة محمد ﷺ فلم تصل فى تأثيرها فى التطور الاجتماعى للإنسان وفى وعيه الذاتى وفى حركته وإحساسه بالمسؤولية وطموحه البشرى وجهاده فى سبيل العدل ولا فى واقعيتها وملاءمتها لفطرة الإنسان ودفعه للإبداع والتكيف مع التقدم العلمى والاقتصادى والتوجه نحو الرقى الحضارى والاجتماعى مثل دعوة النبى محمد ﷺ..

وسوف نكتشف أيضا – أنه لم يتعرض دين من الأديان السابقة لحملات الإفساد ومحاولات التحريف إلى ما يناقض طبيعته كما تعرضت دعوة النبى الخاتم ﷺ!!..

إن الأمر يبدو وكأنما قوة ما أعدت لها التيسيرات المادية والتوجيهات المعرفية، ظاهرا وباطنا، ثم استخدمت جمع من الأذكياء ذوى العلم الواسع من فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع وخبراء فى مختلف العلوم الاجتماعية بما فيها علم النفس الاجتماعي ودهاة السياسة وعلماء اللاهوت ومفسرين القرآن ودارسين للغة العربية والآداب الإسلامية بما فيها الشعر والنثر وعلوم الفقه ومتخصصين فى شئون المسلمين الاجتماعية من عادات وتقاليد وأعراف من العالمين بمواطن الضعف والقوة لدى المسلمين بعد دراسة متعمقة للشخصية المسلمة وسلوكها النفسى والاجتماعي والاقتصادى..

كل هؤلاء التقوا فى عملية التحريف الشاملة لعقيدة الإسلام من خلال متابعة حاذقة وعبر خطة علمية مدروسة مستهدفة الإسلام والمسلمين..

***

إن المدى الذى بلغته معرفتى يؤكد لى من زاوية نظرية وعملية أن الدعائم الأساسية لعقيدة الإسلام (والتى تمثل الدوافع المحركة لأمة المسلمين وتجعل الفرد المسلم حراً وواعياً وكريماً ومسؤولاً نحو المجتمع) هى: **التوحيد والجهاد والحج**.

ومن المؤسف أن ينحصر مفهوم التوحيد فى مناهج المدارس الدينية داخل الجدل الفلسفى وعلم الكلام الذى لا يتداول إلا بين قلة من علماء الإسلام والذى ما هو فى حقيقته إلا جدل عقيم لا يمت بصلة إلى أى بعد تطبيقى عملى متعلق بحياة الناس..

وبعبارة أخرى: إن الذى بقى من التوحيد هو مفهوم الإله الواحد وليس التوحيد بأبعاده الحقيقية ..

أما مفهوم الجهاد فقد تمت مصادرته تماما ودفن فى مقابر التاريخ ..

وقد حرف عماده المتمثل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغدا يعنى أن

تلوم صديقاً لك!..

فضاع معنى التصدى للفساد والانحراف ومظاهر الفسق فى أشخاص مرتكبيها..

وأخيرا فقد صور الحج كعمل مشوه مناقض للمنطق يقوم به المسلمون كل عام..!

لقد أفلح أعداء الإسلام فى أن يلحقوا بفريضة الإسلام الخامسة التحريف الذى يبتغونه وذلك بانتهاج سياسة موحدة..

فقد أضرمت الخلافات الفقهية فى أبواب الطهارة والصلاة من كتب الفقه إلى حياة الناس لتستهلك طاقة كل من يلجأ للمسجد!..

وفى نفس الوقت دفع القرآن الكريم لينحرف ويأخذ مجراه إلى المقابر يتلوه الجالسون عليها على أرواح الموتى!..

أما فى المدارس الدينية فقد نحى القرآن الكريم عن حياتهم بطريقة أخرى وهى وضعه على الأرفف ليحل محله كتب أصول الفقه وعلم الكلام على أيدى المعلمين..

وواقع الحال الظاهر لكل عين سليمة يشهد على ما يؤول إليه حال المسلمين عندما يغيب القرآن عن حياتهم وعن مناهج الدارسين والمتعلمين منهم..

ترى هل يستطيع المفكر المتجرد الذى يستشعر مسؤوليته تجاه شعبه أو المسلم الذى يستمد شعوره بالمسؤولية من إيمانه أو المفكر المتجرد الإسلامى الذى يستمد شعوره بالمسؤولية من إيمانه وأمته كليهما.. وهو يقبع ساكنا أن يحس بالراحة؟..

هل ترى كل واحد منهم حين يظن أنه باللجوء إلى أحد مذاهب الفكر الغربى سوف ينقذ أمته ويحل مشاكلها؟!!..

كلا يا صديقى المفكر ويا أخى المسلم!!..

إن تكن تستشعر المسؤولية تجاه الله أو تجاه الشعب أو الأمة- سواء- فنحن فى زورق واحد ويناط بنا مسؤولية واحدة، وفى سبيل حريتنا واستعادة كرامتنا وعزتنا فالطريق الأمثل لذلك هو أن نسلك ذات السياسة التى ينتهجها عدونا وأن نعود إلى الطريق التى ضللنا عنها:

فلابد أن نعيد القرآن الكريم مرة ثانية من القبور والمعازى إلى الحياة وتفاعلاتها، وأن نقرأه على مسامع الأحياء لا الموتى، وأن نسحبه من على الأرفف ونفتحه أمام عيون الطلاب والدارسين بمختلف نوعيات دراستهم ومستوياتها..

فقد عجز عدونا عن القضاء على القرآن، ولكنه عمل على تنحيته بعيدا مغلقا فى زاوية مهملة بعيدة بعد أن يحيطه بهالة من الاحترام اللازم «للكتاب المقدس» الذى لا يمس!..

وعلينا نحن أن نعيده «كتابا للقراءة والدراسة والعمل» أى المعنى الذى يؤكده لفظ القرآن الذى سمى به[1]..

ترى هل يجيئ اليوم الذى يصبح فيه القرآن الكريم هو الكتاب الأساسى والدستور الأعلى لمدارسنا الإسلامية ومصدر الإلهام فى دروسنا الإسلامية؟..

هل يجيئ اليوم الذى تكون فيه الدراسات القرآنية شرط للتأهل لدرجة الاجتهاد؟..

إننا إذا عدنا إلى القرآن الكريم واهتدينا بهديه فى حياتنا -هنا فقط- سوف يتسنى لنا أن ندرك جوهر عقيدة التوحيد..

---

(١) من كثرة الآيات التي تبين هذا المعنى يضيق المجال عن ذكرها وأحيل إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن باب: قرأ، درس، كتاب... وكذلك إلى لسان العرب (المراجع).

وإذا اعتبرنا القرآن دستوراً أعلى لنظمنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية فسوف ندرك الفعالية والإبداع اللذين تتضمنهما واجبات مثل: الحج، والجهاد، والإمامة، والشهادة... وسوف ندرك معنى حياتنا نفسها!!..

***

وقد حان الوقت لننظر فى أحد هذه الواجبات «الحج» انطلاقاً من وجهة نظر توحيدية..

فهذا الكتاب هو ملخص تجربتى الشخصية وفهمى بعد أدائى للعمرة ثلاث مرات وأدائى للحج الأكبر مرة..

وهو لا يعدو أن يكون تعليقا وتفسيرا لشعائر الحج من عبد خاضع لمولاه..

فهو ليس كتابا عن مناسك الحج على أساس شخصى فهذا لا يجوز شرعاً..

فهو لا يتحدث فى أبواب الفقه، ولكنه أطروحة تدعوك للتفكير..

وكل ما عملته هو محاولة لتفسير المناسك كما يفعل أى حاج بعد عودته إلى بلاده، ومحاولة تداول الأفكار والآراء مع الآخرين .. وهذه سُنّة..

ففى كل عام يتاح للأغلبية التى لم تجد فرصة للحج أن تشارك الأقلية التى استطاعت الحج مشاعرها وانفعالاتها وخطوات رحلتها وخلاصة ما جنته من هذه التجربة الفذة.

ولو اضطلعت قيادة مسؤولة بمهمة توجيه وتعليم مليون مسلم[1] يأتون من كل فج عميق من البلاد المتخلفة ومن مستويات تعليمية شبه أمية أو قل شبه متعلمة..

ولو أعطى هذا العمل الاهتمام الذى يصرف للمأكل والصحة والهدايا التذكارية ومظاهر الرفاهية الأرستقراطية القبيحة..

---

(١) تضاعف هذا الرقم (المراجع).

ولو أنها اهتمت قليلاً بتأمل معنى شعائر الحج بدلا عن الانصراف إلى التفاصيل إلى درجة الإغراق فيها وغياب الوعى..

لو حدث كل هذا لأمكننا أن نجعل من الحج كل عام دورة دراسية تشرح فيها عقيدة الإسلام نظرياً وعملياً لمليون حاج يمثلون كل مكان فى العالم، ولأدرك هؤلاء جميعا ماذا تعنى مقاصد الحج، وماذا تعنى النبوة، ويدركون القيمة التى تنطوى عليها وحدة المسلمين ومصيرهم، ولأمكنهم أيضاً أن يعودوا بما حفظوا من المعارف والمعلومات إلى أوطانهم ومجتمعاتهم وقومهم وعشائرهم وأسرهم..

خلاصة الأمر أن الحج بهذا الفهم كان سوف يصير مدى الحياة مرشداً لهم فى ظلام المجتمع كالشعاع الذى يضيىء فى دياجير الظلام..

د. على شريعتى

***

مدخل

ما الذى تعلمته من الحج؟

هذا التساؤل ينبغى أن يطرح ابتداءا..

وما هى ماهية الحج ؟

الحج فى جوهره هو عملية ارتقاء الإنسان نحو الله..

وهو المظاهرة الرمزية لفلسفة خلق آدم ..

وبعبارة أوضح وأقرب: إن أداء شعائر الحج هو استعراض لعدة أشياء فى وقت واحد؛ فهو: «عرض لقصة الخلق»، وهو: «عرض للتاريخ»، وهو: «عرض للوحدة»، وهو: «عرض لعقيدة الإسلام»، وأخيراً هو: «عرض للأمة»..

الأركان الأساسية السائدة فى هذا العرض هى:

* الله تعالى: وهو المدبر الذى يوجه الحركات (خشبة المسرح)[1].

* الموضوع الذى يصور: هو حركة الأشخاص المشاركين فى العرض.

* آدم، إبراهيم، هاجر، الشيطان: هم الشخصيات الأساسية فى العرض.

* المشاهد: هى المسجد الحرام، ومنطقة الحرم، والمسعى، وعرفات، والمشعر الحرام، ومنى.

* الرموز الأساسية فى العرض: تشمل الكعبة، والصفا والمروة، والنهار والليل، والشروق والغروب، والأصنام، وشعائر الأضحية..

* الملابس والمكياج: هى الإحرام، والحلق والتقصير..

* أخيرا فإن الذى سيؤدى جميع الأدوار فى هذا العرض هو شخص واحد: **أنت!**..

---

(١) يقصد بها المؤلف تشبيها مجازيا، ولا صلة لها بمفهوم المسرح الهزلي أو الفني السائد بتداعياته المقبولة وغير المقبولة! (المراجع).

لا اعتبار لكونك رجلا أو امرأة.. شابا أو شيخا.. أبيضا أو أسودا،.. فأنت السمة الأساسية لهذا الأداء؛ فإن دورآدم، وإبرهيم، وهاجر وهم يواجهون الاختيار بين الله والشيطان ستؤديه أنت..

خلاصة الأمر: أنك أنت بالذات بطل هذا العرض.

* * *

إن المسلمين فى كل بقاع الأرض يدعون فى كل عام للمشاركة فى هذا العرض الجليل..

الكل سواسية كأسنان المشط، لا فرق ولا تمايز بينهم لأختلاف الجنس أو الأصل أو الطبقة الاجتماعية..

ووفقا لمباديء الإسلام فاءن الكل يساوى الفرد، والفرد يساوى الكل:

﴿...من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا..﴾

﴿..ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا..﴾(1).

* * *

وتستمر افتراءات أعداء الإسلام متمثلة فى حملات تستهدف النيل من قيمه وتعاليمه وبخاصة ما يرمونه به من عدم احترام عقلية الإنسان وكيانه وحقوقه كإنسان!..

وبالنسبة لفريضة الحج فقد جعلوها فريضة هامشية قليلة الأهمية..

وكما يقول الإمام على رضى الله عنه: «كأن الإسلام هو أن تلبس العباءة مقلوبة!»

ما الذى تعلمته أنا الباحث الشغوف من الحج« الركن الخامس للإسلام»؟

وإلى أى مدى أستطيع أن أستنبط وأن أدرك من معانى هذه التجربة؟..

إن الصفحات القادمة تحوى جهدى المتواضع فى محاولة للإجابةعلى هذين التساؤلين..

---

(1) المائدة: ٣٢.

وليس هدفي – بالطبع – وصف ما الذى يجب عليك أن تفعله فى الحج، فهذا الغرض يمكن تحصيله بالرجوع لأى كتاب من كتب المناسك..

لكن الذى أريده هو أن أشركك معى فى المعانى التى تجسدت لى من تلك المناسك، والتى ستعينك على أن تفهم الحكمة التى من أجلها شرع الله الحج، أو على الأقل تدفعك للتفكير فى تلك المناسك.

***

الخروج عن مألوفات حياتك

الحيـاة اليوم ليست هى الحياة كـما ينبـغي لها أن تكون؛ فـهى لا تعد وكونـها تدور فى حلقـة مفـرغـة، أو هى حركـة لا تقـصد إلى هدف ولا ترمى إلى غاية، أو هى كـبندول الساعة يغدو ويروح بلا معنى.. فيبدأ الإنسان دورته نهـارا لينهيها ليلا، ويبدؤها ليلا لتنتهى مع خيوط الصباح: وبين هذا وذاك يجلس ليرلقب لعبة الفـأر الأبيض والفأر الأسـود وهما يمضغان نسيج حياته حتى يفيضان به إلى الهلاك[1].

فالحياة(حياة الإنسان) الآن أشبه ما تكون بقاعة مسرح، والإنسان مشاهد لتعاقب الليل والنهار فى لا هدف ولا معنى..

ويبقى السؤال: ما الذى ترمى إليه هذه المسرحية الضيقة الأفق؟

إن الإنسان إذا استشعر حاجتـه إلى شىء ما فإنه يكافح فى سبيل الحصول عليه، وإذا توصل إليـه فـإنه ينظر إلى هذا الشىء ومـا بذله من جهـد للحصول عليـه بشىء من الاستخفاف!،. فيالها من حياة مادية لا معنى لها نغرق أنفسنا فيها..

إن افتـقاد الانسـان للوجهـة، وجَعْلُ هدفه من الحياة هي الحياة ذاتهـا، وسلوك سبيل المتفرج السلبي لتعاقب الأيام يجعل منه روحاً ميتا في جسد حي.

وقد جاء الحج ليغير هذه الحياة السقيمة

عندمـا تقـرر أن تؤدي فريضـة الحج وتبـدأ الخطوات اللازمـة لذلك تكون قـد دخلت بالفعل في الحج..

قبل الشروع في الذهاب للحج تكون ساكنا في بيتك مستقراً هادئاً..

وما إن تهيم ذهنك للحج فإنك تنهض وتتحرك بعيداً عن أجوائك الرتيبة..

الحج مضاد لحياة اللا معنى واللا هدف.

أداء الحج خلاص من شباك الحيرة المعقدة..

---

(١) راجع باب (برزويه المتطبب) من كتاب «كليله ودمنه».

سافر من دارك ووطنك لتزور «بيت الله» أو« بيت الناس»[1].

إنك أنت– أيًا من تكون– إنسان، وابن لآدم، وخليفة لله في الأرض، ومن عيال الله (والناس عيال الله)، ومحل أمانته، وسيد الطبيعة، والمتعلم من الله..

لقد علمك سبحانه الأسماء كلها «وعلم آدم الأسماء كلها»[2]، ونفخ فيك من روحه، وزودك بالخصائص المتميزة وجعلك محل ثنائه..

حتى ملائكته– سبحانه وتعالى– أسجدها لك، وسخر لك مافي الأرض جميعا، وأحاطك برعايته..

وأينما تكون يراقب أعمالك..

وهو– سبحانه– في عونك..

* قلب المؤمن عرش الله أو عرش الرحمن[3].

* **﴿فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾**[4].

* **﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾**[5].

* **﴿إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾**[6].

* **﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾**[7].

ومع مضي الوقت وبتأثير قوى وعوامل مختلفة في النظام الاجتماعي الذي لا يقدر حقوق الإنسان ولا واجباته فإن شخصيتك سيعتريها التغير وفطرتك ستصيبها الآفات.

---

(١) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين﴾ آل عمران: ٩٦.

(٢) البقرة: ٣١.

(٣) يقول المؤلف: جاء في حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأورده صاحب أسرار الحكمة ص ١٦٦، ٢٢٥.

(٤) العنكبوت: ٣.

(٥) الحديد: ٢٥.

(٦) الكهف: ٧.

ومع تقلبات الحياة وابتلاءاتها فإنك ستغدو مهملا ومعزولاً..

لكن الأصل في الإنسان الذي يحمل نفحه من روح الله في أعماقه أن يكون خليفة لله في الأرض وموضع ثقته سبحانه..

لقد ائتمنك الله على الوقت لأنه وسيلتك للوفاء بتلك الخلافة، ولكنك أخفقت لأنك أهملت نعمته ولم تحسن استغلالها ﴿**والعصر، إن الإنسان لفي خسر**﴾[1].

***

هذا هو معنى الحياة الذي من أجله كانت..

لكن، ماالذي تحقق على أرض الواقع بالفعل؟! وكم مشروع تم إنجازه؟..

وماهو كسبك أنت بالذات؟ ماالذي قدمته أنت نفسك؟..

كم من السنين الغالية بددتها هدراً؟..

والسؤال قائما: من تكون أنت؟..

إنك حامل أمانة الله وخليفته في أرضه، ولكنك وجهت وجهك نحو المال والنساء ومختلف الشهوات.. والطمع والعدوان والخيانة..

لقد انحدرت إلى درك الحمأ المسنون الذي كنت فيه قبل أن ينفخ الله فيك من روحه، فأين هي روح الله اليوم؟!.

انهض أيها الإنسان من هذه الأوضاع المزرية وتحرر من هذا الموت البطيء..

اخرج من أرضك واذهب إلى الأرض المقدسة لتلقى الله تحت أديم السماء العامرة بالإلهام المفعمة ببركات الوحي: سماء المشعر الحرام لتهزم الغربةالتي تعانيها..

وأخيراً: ستلقى نفسك!..

***

---

(١) العصر : ١، ٢.

التوجه تلقاء الله

يحين الحج في الشهر المبارك «ذي الحجة» على أرض مكة التي يلفها السلام والسكينة؛ حيث لا مكان فيها للخوف والبغضاء والحرب..

إنها صحراء تمتاز بالأمن والسلام ويسود فيها مناخ العبادة والروحانية حيث يتاح للناس أن ينعموا بلقاء الله الرحمن الرحيم..

ألم تسمع نداء إبراهيم عليه السلام:

﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾(1).

أيها الإنسان يامن خلقت من حمأ مسنون أو من صلصال كالفخار، ابحث عن روح الله فيك، واستجب لدعوته، واذهب لتلقاه فإنه- سبحانه- ينتظرك.

إن بقاء الإنسان في الحياة دون التوجه للإنابة إلى روح الله استهتار لا معنى له ..

حرر نفسك من رغباتك وأطماعك التي تنأى بك عن الله وانضم إلى الفوج البشري الخالد المهاجر إلى الله في الحج.. وهناك ستلقى الله.

***

قبل الذهاب إلى الحج يجب أن تسدد ديونك كلها..

كل أحقادك وضغائنك تجاه الأهل والأصدقاء يجب تصفيتها ونبذها وإصلاح مانتج عنها..

عندئذ فقط تكون نيتك حاضرة للحج..

وهذه المقدمات كلها يقوم بها الإنسان- أيضا- عندما يستشعر دنو أجله!..

وهذه المقدمات تحقق طهارتك المادية والمعنوية والنفسية..

إنها لحظات الوداع الأخير..

---

(1) الحج: ٢٧.

وهاقد تم تصوير مستقبل الإنسان بعد لحظات الوداع الأخيرة والرمز إليهما..

والآن فقط صرت حراً لتنضم إلى قافلة الخلود..

لا حيلة لك وليس بيدك شيء وأنت في موقف البعث أمام ميزان أعمالك، وسمعك وبصرك وفؤادك خير شاهد عليك:

﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾(١).

أنت وكل جارحة في جسدك مسؤولون عن أعمالكم.

ومادمت في دار العمل فاستعد لدار الحساب واختبر الموت قبل الموت واذهب إلى الحج..

فالحج هو تمثل للرجعى إلى الله تعالى الذي لا تحده حدود وليس كمثله شيء..

والرجعى إلى الله هي دلالة قاطعة على اختيار الإنسان وسعيه نحو الكمال والخير والجمال والقوة والعلم والحق والأخلاق الفاضلة..

في رحلتك إلى الباقي ستكون الرحلة سرمدية حيث يقودك إلى الصراط السوى وحيث تمتد الرحلة بلا نهاية..

وطريق الإسلام مختلف عن طريق الصوفية السكرى؛ فحياة المسلم ليست بحياة لاهوتية ساكنة ولكنها حياة جهاد ومجاهدة للتقرب إلى الله:

﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾(٢).

﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾(٣).

فليس هدفنا أن «نفنى» لكن أن «نزهر»! مبتغين في ذلك وجه الله وحده تقرباً إليه سبحانه.

والله تعالى ليس ببعيد عنك حتى تجهد في الوصول إليه؛ فإنه أقرب إليك من حبل

---

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) البقرة: ١٥٦.

(٣) الشورى: ٥٣.

الوريد:

﴿.. ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[1].

وبهذا المفهوم نعلم أن كل شيء من دون الله هو أبعد عنا من الله سبحانه وتعالى بعداً متفاوتاً..

***

يا أيها الإنسان..

يامن أسجد الله لك ملائكته..

هاقد استطال عليك العهد، وأحكم المجتمع عليك نفوذه حتى تبدلت تبدلاً كبيراً..

فلم تبق صامداً ومخلصاً لعهدك بأن تعبد الله وحده فتعبدت للطاغوت..

وبعض الطواغيت صنعتها بيديك!

﴿ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر﴾[2].

لقد أضحى طابع حياتك الإخلاص لبعض الأفراد، والخضوع للهوى الشخصي، والقسوة، والجهل، وانعدام الوجهة، والخوف، والطمع..

صارت حياتك- إذن- مشاكلة ومشابهة لطباع الحيوان، وأصبحت مثل الذئاب والثعالب والفئران والخراف!.

أيها الإنسان عد إلى أصلك واذهب للحج وزُرْ ربك الودود الذي خلقك في أحسن تقويم..

إنه ينتظرك ليراك..

دع قصور السلطان، وكنوز الثروة، ومعابد الضلال.

وأطلق سراح نفسك من هذا القطيع الحيواني الذي يرعاه الذئب.

انضم إلى قطيع «الملبين» السائر إلى «بيت الله» أو «بيت الناس».

---

(٢) ق: ١٦.　　(٣) القمر: ٥١.

أدخل إلى الميقات فردا*

يبدأ العرض في الميقات.

وفي هذا الموضع يجب على الممثل (الإنسان) أن يبدل ثيابه..

لماذا..؟!.

لأن ثياب الإنسان تكسوه من الخارج ماديا كما تكسوه الشخصية من الخارج معنوياً..

بعبارة أخرى: فإن المرء لا يرتدي ثيابه، ولكن ثيابه هي التي تغطيه؛ فملابسنا هي التي تعبر عن أنماط حياتنا وتميزنا وتحدد طبقتنا ووجهة تفكيرنا، وهي التي تقيم الفواصل والحدود بين الناس مما يسبب التفرقة بينهم في معظم الأحوال..

وأكثر من ذلك فإن الملابس تجعل مفهوم «الأنا» يقتحم وليس مفهوم «النحن».. كلمة «أنا»- في الملبس- تأتي في سياق يعبر عن «عنصري»، أو «طبقتي»، أو «عشيرتي»، أو «مكانتي»، أو «أسرتي»، أو «مقدرتي».. ولا تعبر عن معنى «أنا» باعتباري إنسانا.

حواجز كثيفة أقيمت في حياتنا صنعتها سلالة قابيل من القتلة والقساة حتى تمزقت الروابط بين أفراد الأسرة الإنسانية من أبناء آدم وتشتتت وحدة الجنس البشري إلى تقسيمات وأشكال عديدة نتج عنها شبكة من العلاقات تجسدت في:

ساده وعبيد.. مستكبرين ومستضعفين.. مستعمِرين ومستعمَرين.. مستغِلّين ومستَغلّين.. أقوياء وضعفاء.. أغنياء وفقراء.. متخمين وجائعين.. أشراف وسوقه.. أشقياء وسعداء.. نبلاء ووضعاء.. متحضرين وغير متحضرين.. شرقيين وغربيين.. عرب وعجم.

وهكذا نقسمت الأسرة البشرية إلى أعراق وأجناس وأمم وطبقات وجماعات وعائلات.. لكل منها مرتبة مميزة وقيما خاصة وأسماء وألقاب، وكل ذلك لإظهار التفرد

---

* يشير إلى الآية الكريمة ﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ مريم: ٩٥.
والآية: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ الأنعام: ٩٤.

رغم مايكلفه من تصنع وجهد..

***

اخلع ثيابك الآن عند الميقات وارتدى الكفن[1] المؤلف من قماش أبيض خالص.. أصبحت ثيابك مثل ثياب أي فرد، وبدا الجميع في الزي الموحد..

تحولت إلى جزيء ينضم إلى الكتلة العريضة، وإلى قطرة تدخل في المحيط.

لا تكن مختالاً فخوراً فلست هنا لتلاقي ندا أو نظيراً، بل تواضع وانكمش واخشع لأنك ستلقى الله..

كن الحي الذي يقترب من الموت، أو الميت الذي يستشعر وجوده..

في أرض الميقات – ودون اعتبارات الانتماء والطبقة– انزع عنك كل قناع كنت ترتديه في حياتك اليومية:

قناع الذئب الذي يرمز للوحشية والطغيان..

قناع الفأر الذي يرمز للمكر.

قناع الثعلب الذي يرمز للخديعة..

قناع الخروف الذي يرمز للخنوع والذلة..

دع كل ذلك في أرض الميقات وعد إلى جذورك الأصيلة: إنسان فرد من نسل آدم لا غير، أو كما ستكون في المنتهى يوم تموت ومابعد الموت..

لف نفسك بقطعتين من القماش[1] تغطي أحدهما كتفيك وتتدلي الأخرى من حولك لتغطي جزءك الأسفل.

ليس ثمة نسق خاص من التفصيل أو نوع معين من القماش.. مجرد نسيج بسيط خال

---

(١) يقصد ثياب الإحرام.

(٢) تلف واحدة بوسطك وتسمى «الإزار» بحيث تغطى مابين السره إلى مابعد الركبة بما فيها السره، والأخرى توضع على الكتف والظهر دون الرأس ويسمى «الرداء»، ويمكن استعمال دبوس مشبك لجمع أطراف الإزار.

من الألوان والجميع يرتدون نفس النمط من الإحرام فلا يعكس المظهر امتيازا لأحد..

قوافل الحجيج من كل بقاع العالم تلتقي في الميقات في ذات المكان وذات الزمان.. معا في الطريق إلى الله حيث لا يكون الإنسان **كماهو** ولكن **كما ينبغي أن يكون**:

﴿وإلي الله المصير﴾

يا للروعة كل شيء يتحرك من طور إلى طور: الحياة والموت.. الموت والحياة..

التناقض.. التحول.. والوجهة:

﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾(١)

وهكذا يبقى الله وحده كاملاً خالداً سبحانه

﴿كل يوم هو في شأن﴾(٢)

الحج أيضاً «حركة» ؛ حيث يقرر الإنسان العودة إلى الله ويدفن كل أنانيته وحبه لذاته في أرض الميقات ويشهد موته بنفسه ويقف بقدميه على قبره..

هنا يتذكر الإنسان المصير الأخير لحياته، ويخوض تجربة الموت في الميقات، وسوف يخوض تجربة البعث عندما يستأنف المناسك بين الميقات والوقوف بعرفة..

فالمشهد أشبه مايكون بيوم الحساب:

فعلى امتداد الأفق يتدفق طوفان من اللون الأبيض ..

كل الناس يرتدون الكفن ولا أحد يمكن التعرف عليه..

تركت الأجساد في أرض الميقات والروح وحدها هي التي تندفع هنا..

الأسماء والأعراف والمراتب الاجتماعية لا تستطيع أن تخرق هذا التضامن العظيم حيث ينبثق مناخ الوحدة عبر الزمان والمكان..

إنه استعراض بشري خاضع لله الواحد القهار..

---

(١) القصص: ٨٨.
(٢) الرحمن: ٢٩.

الخوف والرجاء.. الرغبة والرهبة.. الدهشة والإقبال..

كلها تنصهر داخل جسيمات دقيقة مجذوبة داخل حقل ممغنط..

تقشعر الجلود وتلين لذكر الله.. وتوجل القلوب وتنتشي الأفئدة..

جعل الله الكعبة قبلة له سبحانه والإنسان وحده يعرض نفسه موليا وجهه شطرها واقفا تلقاءه سبحانه..

في هذه الأرض الجرداء القاحلة تتلاشى كل الأمم والعشائر في قبيلة واحدة ووفد واحد يستقبل القبلة الواحدة..

***

الآن وبعد أن نزعت عنك ملابسك وكل شارة تميزك لك أن تدخل إلى قلب الزحام وأنت محرم، وعليك أن تنسى كل شيء يذكرك بحياتك..

كل واحد يفنى ذاته ويأخذ شكلا جديدا هو شكل الإنسان كما خلقه الله..

كل الأنانية والخصاصة تدفن وتصبح المجموعات هي الأمة..

كل «أنا» تموت في أرض الميعاد لتنشأ «نحن»..

قبل أن يحين موعد مغادرتك إلى «منى» يجب أن تكتمل في أمة كما فعل إبراهيم:

﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين﴾(١)

وفي النهاية سيصبح الواحد هو الأمة والأمة هي الواحد والجميع سواسية..

لقد تحول مجتمع الشرك إلى مجتمع التوحيد، وهذه هي الأمة أو الجماعة التي هي على صراط مستقيم..

إنه مجتمع الكمال والنشاط الذي تقوده القيادة المسلمة «الإمامة».

كل من يؤدي الحج فإنه يبتعد عن نفسه وهواه ويتوجه للقاء الله تعالى..

لقد نفخت فيك روح الله، وغادرت دار الغربة إلى دار السلام، وكشفت لك حجب

---

(١) النحل: ١٢٠.

الحقائق، وانتصرت على الجهل والقهر، وأشرقت روحك بمعاني الوعي والعدل، ونبذت الشرك واعتنقت التوحيد.

وقبل ذلك فإن أداء الحج لأولئك الذين أهملوا طبيعتهم الإنسانية والذين اغتربوا عن ذواتهم بالسلطان أو بالمال أو بالجاه أو بالأرض أو بالعصبية، والذين كانت حياتهم لا تعني سوى الحياة الدنيا..

كل هؤلاء قد أتاح لهم الحج أن يكتشفوا ذواتهم فهم الآن يرون بعضهم بعضا «مجتمعين» كأنهم «واحد» أو يرى كل واحد منهم الآخر «منفردين» كل واحد «إنسان» ولا شيء غير ذلك..

***

النية

قبل أن تدخل إلى الميقات حيث التحول العظيم وبداية الثورة، لابد من الإفصاح عن نيتك..

فما فحوى هذه النية؟ وعلى أي شيء تنطوي؟

إنها نية تلبية دعوة رب الناس إلى بيت الناس..

نية الانتقال من بيتك إلى بيت الناس؛ من الحياة إلى الحب.

من الطبقية والعنصرية إلى المساواة والوفاء والحق..

من إنسان تغطيه الثياب إلى فرد عار لا يستر جسده إلا خرقة..

من الحياة الرتيبة اليومية إلى الحياة السرمدية الأبدية.

باختصار: إنه الانتقال إلى حالة الاحرام.

ومن هنا كان لابد أن تؤكد على نيتك بقوة.

وذلك لأنك ستبدأ في النمو خارج قوقعتك كما تنمو نواة التمر.

ولهذا أيضا يجب أن تكون في أعلى درجات الانتباه واليقظة، وأن تكون واعيا أقصى مايكون الوعي.

والنية لا تكون صادقة إلا إذا كان قلبك عامراً بالإيمان.

فاقدح زَنْد قلبك بنور الحب واليقين، واجعل الايمان الفياض وقوداً للحب واليقين يبقى على تلألؤه في قلبك..

انس كل مايتعلق بشخصك.

* * *

لقد كانت حياتك في الماضي مزيجا من التقصير والجهل وكنت لا ترى لوجودك معنى..

حتى في حياتك الوظيفية والعملية صرت عبداً تعمل بحكم العادة أو مقهوراً بالأوامر..

الآن تحول عن هذا النمط من الحياة، وعد إلى فطرتك واعيا مؤمنا واثقا بالله الرحمن الرحيم، وانظر نظرة جديدة إلى الحياة وإلى الناس وإلى نفسك!..

اختر وظيفة جديدة، وقبلة جديدة، وروحاً جديداً..

***

الصلاة عند الميقات

حينما تصل إلى أرض الميقات أو تحاذيها تستعد لتبدأ المناسك الفعلية للحج، وتركز ذهنك فيما يجب أن تفعله، ولماذا تفعله..

وفي ثياب الإحرام ستؤدي صلاة الإحرام(١).

لتكن أنت بنفسك حاضراً حضوراً كاملاً أمام الله الرحمن الرحيم..

عندئذ قل: (ياألله.. لم أعد عبداً للطواغيت. لم أعد عبداً للنمرود.. ياألله إني أقف أمامك كما وقف أمامك قبلي عبدك إبراهم.. متجرداً من طغيان الذئاب.. متجرداً من غش الثعالب.. متجرداً من شح الفئران.. كلا!.. إني لا أقف بين يديك إلا كمجرد «إنسان» يلبس ذات الكفن الذي سيلقاك به في دار الآخرة).

إن هذا الحضور الكامل يعني أنك قررت بكامل إرادتك ووعيك أن تكون عبداً لله وحده تؤمن به وحده وتكفر بكل مادونه.

وقد عبرت عمليا عن حضورك التام كما كلفك به سبحانه من واجبات وفرائض.. إن هذا الحضور التام وهذه المعاني التي تنبثق منها هي ذات المعاني التي تنبثق من الصلوات الخمسة التي تؤديها في اليوم والليلة، ولكنها في هذا المقام تكتسب خاصية فريدة في استجابتك لدعوة أبيك إبراهيم تتجسد في مناجاتك الحميمة معه سبحانه وأنت تستشعر حضوره جل شأنه قريبا منك.

قل: (ياألله.. ياأكرم الأكرمين.. ياأرحم الراحمين.. يامن تعالت رحمتك وعزتك فوق صداقة الأصدقاء وعداوة الأعداء، وصلاح الصالحين وفساد المفسدين، وإيمان المؤمنين وكفر الكافرين..

ياألله إني أعبدك لأنك وحدك أهل للعبادة.. لم أختر لي سيداً سواك.. أنت مالك يوم الحساب ويوم الدين: ﴿ **الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك**

---

(١) إذا لم يحرم عقب صلاة مكتوبة صلى ركعتين وهما مستحبتان.

نعبد وإياك نستعين﴾(1).

لك حبنا كله.. ولا معين لنا سواك.. ترانا أضعنا أنفسنا بجهلنا.. ترانا كيف ضل بنا الطغاة.. ترانا ضعفاء تائهين: **﴿اهدانا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾**(2).

عند الميقات في ثياب يوم الحشر البيضاء الكل يركع مستنكراً أفعاله التي دفعته إليها دوافع الخوف والطمع.. سائلا المغفرة مما اقترفه في حياته من هذه الأفعال؛ فكل سجدة هي استغفار وتوبة مما ارتكبته طواعية واختيارا.

الصلاة عند الميقات هي عهد مع الله بتوحيده: فلا ركوع، ولا سجود لأحد غيره.

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

كل هذه أذكار تشير إلى القرب لا إلى البعد.

فالله سبحانه، وإبراهيم الخليل، ومحمد الحبيب، والخلق، والدار الآخرة، والنجاة، والفوز، والتحرر، والحب.. كل منهم حاضر في الميقات..

فأنت في ثياب إبراهيم الخالية من الألوان تولد من جديد..

إنك لا تولد من جديد فقط إنك تبعث ..

لم يعد للشيطان الرجيم- العاصي لأوامر الله- سلطان يخدعك به..

لم تعد تحس بمشاعر الغربة المشربة بالخزي.

لقد عدت إلى الله.. وأنت الآن حر مسؤول.

***

---

(1) الفاتحة: 2- 5.

(2) الفاتحة: 6-8.

محظورات الإحرام

وأنت محرم عليك أن تجتنب عدداً من الأشياء.

يجمع هذه الأشياء المحظورة هو أنها تذكرك بتجارتك أو وظيفتك أو طبقتك الاجتماعية أو منصبك أو مكانتك أو عنصرك وحسبك..

إنها تلك الأشياء الجوهرية التي تحدد حياتك في دنيا ماقبل الميقات.

قد نتفق أو نختلف حول بعضها ولكن نحددها مجملة كمايلي:

* لا تنظر إلى المرآة.. حتى لا ترى صورتك، كي تنسى ذاتك مؤقتا.

* لا تستعمل طيبا ولا تستنشق عطرا.. حتى لا تستحضر ذكريات الأوقات الممتعة في الماضي.. إنك في بيئة جديدة تعبق فيها الروح، ومن ثم فلا تستنشق إلا المودة والحب.

* لا تصدر أوامر لأحد حتى تستشعر معنى الأخوة.

* لا تؤذي حيوانا ولا حشرة.. ولتعش في سلام متوجها بكليتك إلى الخالق الأعظم.

* لا تقطع ولا تقلع نباتا ولا شجرة.. حتي تشمل رحمتك كل شيء ولتنزع من نفسك نوازع العدوان وتستأصل عوامل الشر.

* لا تصطاد من البر شيئاً، ولا تأكل من لحمه إذا صيد لك.. حتى تكون رحيما بالآخرين.

* اجتنب النساء، وكل مقدمات الجماع.. ولتستلهم الحب الحقيقي.. حتى تتسامى وتكون في مستوى قداسة الموقف ومناسكه.

* لا تعقد زواجا لك ولا لغيرك، ولا تشارك في مراسم زواج.

* لا تفسق، ولا ترفث، ولا تلعن، ولا تبغض، ولا تقسم.

* لا ترتدي المخيط من الثياب، ولتكن كل ثيابك قماشاً خالياً تماما من المخيط.. حتى تنأى عن التميز بين إخوانك.

* لا تغطي رأسك.. للرجال.

* لا تغطي وجهك.. للنساء.

* لا ترتدي حذاء ولا جوربا..

* تجرد من كل أنواع الزينة.

* لا تحلق رأسك.

* لا تقلم أظفارك.

* لا تستعمل دهانا.

لقد بدأ الحج!...

سارع إلى الله..

أنت الآن في حالة الإحرام..

قل: لبيك.. (لقد ناداك الله تعالى، وأنت هنا تلبية لدعوته، وعليك أن تكون في أتم الطاعة له).

لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك.

إن نداء الناس: (لبيك اللهم لبيك) هو إعلان استنكار ورفض لطغيان واستغلال وخداع القوى العظمى.

إن كل حاج من مكانه يخاطب الله الأعظم..

تخيل أيها الإنسان في هذا المقام كأنك جسيم من الحديد في مجال ممغنط..

تخيل كأنك في سرب من الطير الذي يضم الملايين وهو يصعد محلقا في السماء عارجا إلى الملأ الأعلى

أنت الآن تقترب من الكعبة..

كلما ازددت قربا ازداد خفقان قلبك، وجاشت عاطفتك، وتزلزلت أركانك.

إن قلبك يخفق بضراوة تحت جدار الصدر، ويقشعر جلدك من هول الموقف.

إن روح الله تملأ المكان ولا تستطيع أن تحبس دموعك..

إنه بيت الله الحرام، وأنت تحس به سبحانه أقرب إليك من حبل الوريد.. تحت جلدك وفي قلبك وفي ذهنك.. يملأ عليك حواسك؛ فتراه سبحانه على كل سطح جماد وفي كل حبة رمل.. في الوادي.. في الصحراء، لا ترى أحداً سواه..

إنه هو وحده الموجود وكل شيء دونه غثاء.. فقاعات.

إنه هو وحده الحق وكل ماعداه باطل..

***

وبينما تمضي في رحلتك عبر مناسك الحج المختلفة، تبتعد رويداً رويداً عن نفسك..

إنك مجبر على السير في اتجاه واحد لا تستطيع فكاكاً منه..

إنك تتقدم إلى الأمام رغما عنك، والكون كله يبدو كالقلب الخافق، والله تعالى يتجلى في كل أنحائه.

الآن تدخل إلى جوار الكعبة حيث أرض الحرم بكل بركاتها..

الإحساس بالأمن يتولد داخلك بمجرد دخولك..

لا قتال.. لا صيد.. لا قتل.. وحتى النبات لا يقطع!.. لا شيء من ذلك مباح في أرض الحرم..

هذه الضوابط وضعت يوم فتح الرسول ﷺ مكة وخلص الكعبة من الأصنام، ومنذئذ أرسيت هذه السنن التي تحرم أفعالا معينة في تلك الأرض المقدسة.

ما إن تدخل إلى جوار الكعبة حتى يتوقف نداء التلبيه، ويلف الصمت المكان..

هذه علامة وصولك.. حيث تلقى المضيف.. صاحب البيت.. الله الرحمن الرحيم..

الجميع في سكينة وهدوء، ولكن في قلب كل واحد يشتعل الحب..

مدينة مكة أشبه مايكون بسهل واسع منبسط تحيط به الجبال من كل جانب.

كل واد وشارع ودرب يتوجه تلقاء هذا البيت العظيم، والكعبة هي المركز والقبلة..

إنك تنظر إلى موكب متناسق ينحدر من سطح الجبال كمجاري نهر أبيض يصب في المسجد الحرام..

ووسط هذا الخضم داخل هذا النهر تشعر كأنك قطرة..

كلما ازددت اقترابا من الكعبة ازداد شعورك بالعزة والفخر..

إنك في تحدرك من الجبل تلقاء الكعبة تقترب من لقاء الله..

الكعبة هي القبلة، والتواضع والطاعة والانكسار والخشوع وهي السبيل الوحيد الذي يقربك من الشرف والكرامة اللذان يوصلانك إلى العظمة..

إن معنى هذا: أنك لا يجب عليك أن تبحث عنه سبحانه عن طريق الفلسفات والميتافيزيقيات(الماورائيات).

إن أمامك الطريق سهلة مبسطة عبر هذه الأرض وفي ثنايا هذه المناسك..

إنك تستطيع أن تراه سبحانه من خلال منهجه، وفي كل مخلوقاته التي تسبح بحمده..

تذكر دائما أنك لكي تلقى الله لابد أن تسلك السبيل القويمة، ولذلك لابد أن توطن نفسك وتستعد لتعرف هذه السبيل!..

إن هذا المنظر السابق يذكرك بمصير الإنسان: فهو منظر يرمز لانحدار الإنسان العميق نحو الأرض (حيث يدفن) ثم ارتقائه نحو الله (عندما يبعث يوم القيامة).

***

إنك لا تزال تقترب من الكعبة والهواء معبق بالأفكار والعواطف والمشاعر والحب والصمت.

إن في كل خطوة تخطوها، وفي كل لحظة تمر عليك تزداد رغبا ورهبا.. رجاء وخوفا.. حبا وإشفاقا.. إن اقترابك من حضرة الله القدسية يزداد، وعيناك تتسعان وأنت شاخص ببصرك تجاه الكعبة..

لم تعد تستطيع أن تأخذ أنفاسك.. فؤادك ممتلىء بالرجاء والحب.. شفتاك لا تنبسان بكلمة .. شعور يغمرك وتعجب لجسدك وقلبك كيف يطيقان تحمل كل هذا؟!

عندما تنحدر وأنت قطرة وسط هذا النهر الأبيض تشعر بنهايتك الأبدية..

وفجأة تتجلى الكعبة أمام ناظريك..

الكعبة التي هي قبلة كل المسلمين في صلواتهم في كل أنحاء الأرض.

الكعبة التي هي مركز وجودهم وإيمانهم وحبهم وحياتهم.

الكعبة التي هي قبلتهم حتى في لحظات الاحتضار قبل الموت.

وحتى بعد الموت حين يوجهون أجسادهم شطرها عندما يوارون في الثرى..

***

الكعبة

من حجارة خشنة سوداء تقف الكعبة في نسق غاية في البساطة..

اللون الأبيض يسد فرجات البناء، والكعبة مكعب فارغ.

ولا شيء غير ذلك..

لا شيء مما ترى يجعلك تعجب أو تهتز..

هنا.. لا يقف أحد..

وليس هناك شيء تتأمله..

لا ترى سوى غرفة مكعبة فارغة..

هل هذا كل ماهنالك؟!..

هل هذا مركز إيمانك وحبك وحياتك وموتك؟!..

وتتوالى الوساوس في ذهنك: أين أنا؟. ماذا هنا؟..

إن الذي تراه هو النقيض لما في خيالك!

ربما كنت تتصورها لوحة في فن المعمار مليئة بالزخارف..

ربما كنت تتخيلها كأحد الأضرحة التي زرتها من قبل لأحد المشاهير..

ربما.... وربما..!..

ولا محل لهذا كله من الواقع الذي تشاهده أمامك.

وبدلا من كل هذه التخيلات تجد أمامك ساحة منبسطة، وغرفة فارغة لا تعكس أي مهارة معمارية ولا جمال ولا فن ولا نقوش ولا جودة!!..

ثم إنه ليس هناك ضريح لأحد حتى تتوجه إليه بالنية أو بالذكريات أو بالشعور!!!..

ستعلم أنه لا شيء هناك.. ولا أحد..؛ حتى لا يعكر عليك صفو اتصالك بالله تعالى.. إن الكعبة التي تريد التحليق فوقها وحولها لتتصل (بالمنتهى) و(الأبد) و(السرمد)، هي

منتهى مشاعرك ومطلق غايتك..

هذه آفاق لن تستطيع أن تبلغها في عالمك النسبي المزدحم..

قد تستطيع أن تفلسف الأمور، ولكنك الآن لاتحتاج إلى ذلك لأنك تستطيع أن ترى (المطلق) الواحد الذي لا يحده حد ولا يحصره تصور سبحانه: الله! ﴿**وهو معكم أينما كنتم**..﴾

لا تحسب أن الكعبة بناء فارغ..

إنها هنا لها وظيفة العلامة والدليل والمرشد، فهي ليست نقطة النهاية، وإنما هي هنا لتدلك على الاتجاه..

إنها الزاوية التي إليها تركن، والمعلم الذي يدلك على الطريق..

إنك تبدأ الحج حينما تقرر أن تتحرك تجاه الأبدية..

إنها حركة أبدية نحو الله لا نحو الكعبة..

فالكعبة ماهي إلا بداية..

إنها المكان الذي يلتقي الله تعالى وإبراهيم الخليل ومحمد ﷺ بالناس..

إن وجودك مرهون بتخلية قلبك من ذاتك وتجردك منها؛ لذا عليك أن تذوب في محيط الناس.. إنك هنا لا ترتدي لباسا خاصا..

إن الله قد جعلك من أهله «الناس عيال الله»، وهو سبحانه القيوم عليهم أولى بهم من أنفسهم..

فالكعبة «بيت الله» وفي نفس الوقت «بيت الناس»:

﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين**﴾[1].

لن يتسنى لك أن تبدأ رحلتك السرمدية داخل البيت الحرام حتى تتجرد من حصر اهتمامك في ذاتك..

---

(١) آل عمران: ٩٦.

لقد سمى البيت بـ«العتيق» وهو عتيق لأنه يمثل التحرر*..

فأرض الحرم ليست ملكا لأحد.. إنها أرض حرة من أي رباط بالحكام والطغاة.. ولهذا لا يمكن لأحد أن يسيطر عليها..

إن أرض الحرم ملك لله وحده، وماالناس إلا سكانها..

لقد رخص للمسلمين أن يقصروا الصلاة كلما سافروا مسافة تزيد عن الأربعين ميلاً من مقر إقامتهم، لكن في مكة.. في أرض الحرم، ودون أي اعتبار لأي مكان جئت منه أو مسافة قطعتها تظل صلاتك كاملة لا تقصرها.

إنها أرضك وأنت آمن بها..

إنك لست ضيفاً.. إنه بيتك..

قبل مجيئك إلى مكة فأنت غريب بأرضك.. منفي بها..

ولكن الآن أنت أحد المدعوين للانضمام إلي أسرة الله وأهله.

إن الإنسانية بأسرها- تلك الأسرة المشردة في هذا العالم- مدعوة لهذا البيت..

إنك كفرد من هذه الأسرة البشرية مستغرق في ذاتك، تشعر كأنك بلا دار.. غريب.. بلا مأوى ولا أهل..

لهذا عليك أن تنبذ كل مايجعلك متميزا؛ كي تذوب في المحيط البشري..

أنت الآن تتهيأ لتدخل وتنضم إلى أسرتك الجديدة..

لقد حللت أهلاً ونزلت سهلاً.. صديقا وأخا قريباً في أسرة الله لتصبح من (عيال الله).

إبراهيم عليه السلام أقدم وأكبر متمرد في التاريخ يتجلى..

لقد أنكر كل أصنام الأرض، وأخلص حبه وطاعته وعبادته لله وحده، وبنى بيديه الكعبة.. هذا البناء الذي هو رمز الله في الأرض..

---

* من العتق: وهو للرقيق

البناء غاية في البساطة من حجارة جبل عجون[1] السوداء حيث وضع حجر فوق الآخر دون تخطيط معماري ولا رسومات هندسية ولا نماذج وديكورات..

لكن.. لماذا المكعب؟..

ولماذا تكون بهذه البساطة دون ألوان ولا زينة؟..

ذلك لأن الله ليس كمثله شيء؛ فلا هيئة تمثله، ولا لون يشبهه سبحانه..

إنه سبحانه لا شيء من النماذج والصور التي تحصر خيال الإنسان يمكن أن يتمثله.. إنه (الوجود الكامل) و(القدرة المحيطة) وإليه (المنتهى)..

ورغم أن الكعبة ليس لها اتجاه– فهي مكعبة الشكل– فأنت حين تستقبلها في صلاتك تكون قد اخترت التوجه إلى الله، وتستقبل وجهه الكريم..

إن خلو الكعبة من أي اتجاه قد يبدو صعبا على الأفهام، لكن الكونية النهائية ينبثقان من تلك المسألة نفسها؛ فالمكعب هو الشكل الوحيد الذي يحتوي على ستة جوانب وفي نفس الوقت لا اتجاه له..

الكعبة هي الأصل الذي يرمز لذلك:

﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[2]

في أي مكان خارج الكعبة تصلي فيه يجب أن تستقبلها..

كل بناء غير الكعبة له اتجاه: شمال أو جنوب.. شرق أو غرب.. فوق أو تحت. والكعبة استثناء؛ إنها تستقبل كل الوجهات دون أن تقتصر على واحد منها..

***

ناحية الشرق من الكعبة يقوم جدار قصير في شكل شبه دائري..

إنه: (حِجْرُ إسماعيل)!..

وهو أشبه مايكون بأطراف الرداء المثنى، وجداره هلالى الشكل..

---

(١) عجون جبال قريبة من مكة.

(٢) البقرة: ١١٥.

كان لسارة زوجة سيدنا إبراهيم خادمة سوداء تدعى هاجر..

وكانت هاجر من المسكنة والضعف بحيث لم تعترض ساره على تسرى زوجها إبراهيم بها حتى تحمل وتلد..

إنها امرأة لم تكن ترقى لأن تكون زوجة ثانية لإبراهيم.

ومع ذلك فقد جعل الله تعالى الجدار الذي يرمز إلى حجرها موصولا بكعبته التي ترمز إليه سبحانه.

كان حجر هاجر هو المكان الذي ترعرع فيه إسماعيل..

بيت هاجر كان هناك، وقبرها إلى العمود الثالث للكعبة..

يا للعجب..!!

إنه لا أحد – مهما كان شأنه– ولا حتى الأنبياء يجوز أن يدفنوا داخل المساجد لكن في حالتنا هذه نجد بيت الأمة السوداء قد شيد إلى جوار بيت الله!!..

وقبر الأمة السوداء (هاجر) أم إسماعيل يوجد هنا والكعبة ممتدة باتجاه القبر!!..

وهكذا تكون النتيجة مجاورة حجرها لبيت الله..

***

يوجد ممر ضيق بين جدار حجر إسماعيل والكعبة، وعند الطواف يأمرك الله أن تدور حول الجدار، لا أن تشق طريقك عبر الممر، وإن فعلت فإن حجك لا يقبل..

على هؤلاء الملبين لدعوة الله المدينين بالتوحيد القاصد ين بيت الله أن يطوفوا حول الكعبة بما فيها حجر إسماعيل..

لقد أضحى قبر الأمة الإفريقية السوداء والأم الصالحة التقية جزءاً من الكعبة يطوف حوله الناس أبد الدهر..

إن الله الرحمن الرحيم جلت قدرته أحد واحد فرد صمد تناهت عظمته لا يفتقر إلى أحد من خلائقه التي لا تحصى.. اختار أحدهم:

إنسان .. من أكرمهم.

من بين كل الناس : اختار من النساء.

من بين كل النساء : اختار من الإماء.

من بين كل الإماء : اختار أمة سوداء !

أضعف خلقه وأكثرهم مسكنة وضعة هو الذي أعطاه مكانا إلى جواره.. حجرة في بيته.

بل إن الله أتى إلى بيتها، واختار جوارها، ورعى حجرتها..

والآن لا يوجد تحت سقف هذا البيت سوى الله تعالى وهاجر.

في المجتمع الإسلامي (الجنود المجهولون) لا يتم اختيارهم هكذا..

***

إن شعائر الحج هي مذكرات هاجر، وكلمة (هجرة) مشتقة من اسمها، والمهاجر الأمثل من كانت قدوته (هاجر)، أو كما يقول الرسول ﷺ: «المهاجر من صار كهاجر».

إن الهجرة هي مافعلته هاجر: أي الانتقال من الهمجية إلى الحضارة أو من الكفر إلى الإسلام.

أما المعنى الذي يعنيه اسم هاجر في لغتها الأم فهو (المدينة)..

حتى اسم هذه الأمة الإثيوبية السوداء هو رمز الحضارة، بل إن هجرة على طريقة هجرة هاجر هى هجرة باتجاه الحضارة..

يقع قبر هاجر وسط طواف الإنسان حول الكعبة..

وأنت أيها المهاجر، يامن حرر نفسه من كل شيء واستجاب لدعوة الله، سوف تطوف بقبر هاجر وكعبة الله في ذات الوقت.

***

ماالذي قيل في الفقرات السابقة؟!

إنه صعب الإدراك..

خاصة على الذين يعتقدون أنهم يعيشون في الحرية ويدافعون عن الإنسانية..

إن جلال هذه الوقائع يتجاوز مدى فهمهم..

***

الطواف[1]

كالنهر المنساب الذي يدور حول صخرة صلدة يبدو مشهد الكعبة وهو محاط بأمواج البشر المنفعلة نفوسهم..

إنها كالشمس في المركز والناس حولها كالأجرام التي تسبح حولها..

مدار النظام الشمسي: الكعبة قائمة في المركز والناس يتحركون حولها في شكل دائري..

الكعبة ترمز لخلود الله ودوامه، بينما الحركة الدائرية تمثل النشاط الدائم والحركة المستمرة لخلائقه:

الدوام + الحركة + الانتظار = الطواف.

إنها رمزية رفيعة للنظام الكوني للوجود القائم على قواعد التوحيد الذي سخره الله بكل مافيه لـ : (الإنسان)..

إن الله تعالى هو مركز الوجود سبحانه، وهو بؤرة هذا العالم الزائل الذي نعرفه والعوالم الأخرى التي لا نعرفها..

وعلى النقيض يكون الإنسان! فما أنت إلا مجرد جسيم يتحرك متغيرا مما هو عليه إلى ماينبغي أن يكون عليه..

وأيا كان مكانك وموقعك في أي زمان عليك أن تجعل بينك وبين الكعبة رباط مستمر دائم هذا الرباط يقوى ويضعف على حسب السبيل الذي تختاره..

والكعبة ليست هي بالمحطة الأخيرة..

إن الجميع يحيطون بالكعبة كشخصية معنوية واحدة..

كتلة متحركة واحدة..

---

(١) المقصود هو طواف العمرة للمتمتع.

إنهم هوية واحدة، لا هوية منفردة لأحدهم.. رجلاً كان أو امرأة، أبيضا أو أسوداً..

إنه تحول الشخص الواحد إلى المجموع المنفرد من الناس..

كل «أنا» تذوب لتصبح «نحن»، و«نحن» تؤلف «الأمة» التي تسعى إلي القربى إلى الله.. إن سبيل الله هو سبيل الناس، بمعنى أنه لكي تقترب من الله عليك أن تقترب أولا من الناس..

لكن كيف يكون ذلك؟..

إنك لكي تبلغ درجة الصلاح يجب أن تهتم اهتماما أصيلا بمشاكل الناس لا كما يهتم الراهب المنعزل في صومعته– ولكن بالمشاركة الفعلية الحية في (الميدان)..

وذلك يعني أن تكون جوادا، كريما، معطاءاً، متفانيا، ناكراً لذاتك..

وهذا يعني أن تقاسي الأسر، والنفي، وتتحمل العذاب والألم، وأن تستعد لمواجهة أخطار جمة ومواقف رهيبة..

هذا هو معنى أن تكون سالكا لسبيل الناس الذي يقربك من الله تعالى..

لهذا قال صلى الله عليه وسلم: «لكل دين رهبانية، ورهبانية الإسلام الجهاد».

***

أثناء طوافك لا ينبغي عليك أن تدخل الكعبة، ولا ينبغي عليك أن تتوقف في نقطة ماحولها..

عليك أن تذوب في أمواج البشر، وأن تكون قطرة في خضم النهر البشرى المنساب هذا هو السبيل الذي من خلالها تؤدي الفريضة الخامسة..

كل من أراد أن يأتي لهذا البيت عليه أن يذوب في مجموع المسلمين..

***

ماالذي يراه الناظر؟..

الكعبة قائمة هناك في المركز، والنهر الأبيض المنساب يروح حولها ويجيء، والكل

يرتدي نفس الزي ونفس اللون..

هنا لا تمايز.. لا طبقية.. لا تعالي..

هنا يتأكد معنى الجماعة الحق، وتتجلى صورة العالمية..

خارج الكعبة لكل وجهة هو موليها، ولكل واحد قسما مختلفا..

(الجماعية) خارج الكعبة لا تعد وأن تكون مفهوما نظريا، و(الإنسانية) ليست إلا فكرة مجردة في الأذهان..

الناس خارج الكعبة يتمايزون بأسمائهم وألقابهم وأجناسهم وقومياتهم..

وداخل الكعبة تختفي كل هذه الخصائص، ويحل محلها مفهوم الجماعية والعالمية وبهما وحدهما يمكن أن تجد للناس تعريف..

هؤلاء الذين يطوفون حول الكعبة يمثلون (الإنسانية)؛ فهم وفد الحجيج من (الناس).

إن بقيت دائراً طوافاً في فلك ذاتك فلست بحق جزءا من دائرة الطواف حول الكعبة.. ستكون مجرد زائر غريب على شاطيء النهر الأبيض لا قطرة فيه..

إن الذين انفصلوا عن ذواتهم هم الأحياء..

أما الذين حبسوا أنفسهم داخل ذواتهم فهم ركود وموتى..

إنهم كالأجسام الشاردة في النظام المداري للسماء..

إن الكعبة تعلمك كيف تثبت ذاتك وتؤكدها بالطريقة الصحيحة وتعبر عن وجودك وتصبح من الخالدين عن طريق الانطلاق من قيود ذاتيتك..

ولا يتحقق هذا إلا بالمران على السخاء والعطف على الآخرين والتفاني في سبيل الأمة باختصار أن توق شح نفسك، وبهذا ستكشف غطاء ذاتك وتبصر الواقع..

حينما تجعل من حياتك رسالة وتجاهد في سبيل الله، وتصل إلى أعلى ما يصل إليه المجاهد وهو بذل دمه في هذه السبيل، ومن ثم تسمى (شهيداً)..

و(الشهادة) هي أن تكون حاضراً وحيا بكل مافي الحياة من سمات..

فالشهيد موجود إلى مالا نهاية، فهو مثال (الحياة الأبدية).

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾(١).

إن سبيل الله هو سبيل الناس، ولذا يجب أن يقطع الإنسان رحلة حياته في جماعة لافذا..

وقد يتساءل البعض: لكن ماالذي تعنيه الصلوات التي نؤديها في جماعة ؟!..

إنها شرعت لكي تدربك على التفاني..

فهي تعبير عن البذل بكل صوره العالية: الغاية في الكرم، ونكران الذات (الإيثار)، والتضحية في سبيل الآخرين.. وكل ذلك في النهاية حتى تصل إلى درجة الرجل الأمثل أو المرأة المثلى..

فالإنسان ماهو إلا خليفة لله تعالى في الأرض، وحامل أمانته من لدن (آدم)..

ومادام هو على العهد سيبقى إلى ماشاء الله أن يبقى..

فالشخص الذي يحيا كإنسان سيبقى خالداً حتى ولو مات..

لأن الواحد المفرد فان في حين أنك كإنسان باق..

إن قطرة الماء إذا لم تكن جزءا من النهر أولم تكن ذائبة في البحر فإنها تصبح كقطرة الندى تبقى مابقي الليل فقط وتتلاشى مع أنفاس الصبح الأولى..

أيها الإنسان! ادخل إلى النهر وتدفق معه حتى تلقى البحر وتصير خالداً ..

وياقطرة الندى! لماذا تقفى على الشاطيء ولا تلجى إلى النهر؟!..

هذا النهر نموذج لتناسق الخلق وانسجامه.. تقدم وانضم إلى الناس.. لكن قبل أن تفعل ذلك تأكد أنك تعي تماما ماتفعله ولماذا تفعله: يجب أن تقدم على ذلك في سبيل الله لا في سبيل نفسك.. في سبيل الحق لا من أجل الضرورة.

هنا كل فعل له مغزىً هام، وهذه الحركة الخالدة محكومة بضوابط دقيقة هي انعكاس لنظام الوجود كله.

***

(١) آل عمران: ١٦٩.

البيعة والحجر الأسود

الطواف يبدأ وجوباً من الحجر الأسود..

من هذا الموضع ستدخل إلى النظام الكوني..

من هذا الموضع ستذوب في محيط الآخرين..

هذا هو سبيلك إلى الخلود بعثورك على الفَلَك الذي تدور فيه..

إذا لم تذب في محيط الناس فلن تستطيع أن تسبح في فلكك الدوار ولا أن تقترب من الله سبحانه ..

عليك أن تستلم الحجر الأسود أو أنْ تشير إليه، ومن ثم تصير تلقائياً جزءا من المحيط البشري..

ماالذي يرمز إليه هذا الحجر؟..

إنه يرمز إلى (كف).. كفٍ يُمنَى..

كف يمنى لمن؟

إنه يمين الله..

«الحجر الأسود يمين الله في أرضه»(١).

***

في الماضي كانت القبائل والأفراد تدخل في عقود مع قبائل أخرى، وكانت تلك العهود والمواثيق والعقود تكون غالبا لحفظ سلامتهم وتأمين وجودهم والدفاع عنهم في تلك الصحراء، وكانت هذه العقود تسمى (عقود الموالاة).

كيف كانت تتم هذه العقود؟..

كانت هذه العقود لها مراسم شكلية، وطقوس معروفة تتلخص في أن يبسط أحد

---

(١) حديث ضعيف.

طرفي العقد يده اليمنى ويصافح اليد اليمنى للطرف الآخر.. ويصبح من ثم حليفاً له..

الآن... هنا.. عند الحجر الأسود.. تحين لحظة الاختيار.

إن يمين الله منبسطة إليك، واختيار هدفك وطريقك ومستقبلك قبل أن تنضم إلى الناس مرهون بمصافحة هذه اليمين..

وهكذا تؤدي البيعة لكي تكون حليفا لله..

أنت الآن متحرر من كل ولاء سابق.. لم تعد حليفا للسلطان، ولا للمنافقين، ولا لزعماء القبائل، ولا لأرستقراطي قريش، ولا لأصحاب الأموال..

﴿يد الله فوق أيديهم﴾[1]

فلتستلم يد الله الأعلى، ولتكن هذه اليد فوق كل الذين مددت إليهم يدك من قبل بالولاء والبيعة..

الآن بعد أن تحررت من ولاءاتك السابقة، وجددت عهدك القديم مع الله لتكون خليفته في أرضه حاملاً للأمانة التي عرضها الله من قبل..

عليك إذن أن تنضم إلى الناس وتؤدي واجبك..

لا تقف.. بل واصل السير، لافكاك لك من أن تختار ولا بد أن أ تحد فلكك الذي تدور فيه..

التحق بالنظام وتحرك مع الآخرين..

عندما تطوف حول الكعبة تشعر بحركتك هذه أنك جدول صغير يتدفق إلى نهر كبير! كأنك محمول بالأمواج لا سائراً على قدميك!..

لقد رفعت من على الأرض ووجدت نفسك فجأة طافيا في الخضم محمولا بالطوفان..

عندما تقترب من الوسط فإن الجموع تشتد في الضغط عليك كأنما تنفخ فيك حياة جديدة..

---

(١) الفتح: ١٠.

أنت الآن جـزء من الإنسـانيـة.. إنسـان حي وخـالد لا تتـحـرك (بـذاتك) ولكن (بالآخرين)..

انضم إلى الجموع في حب بعيدا عن التصنع والمظهرية..

***

انظر إلى إله إبراهيم.. حينما جـعلك من نسـبه جـعلك في الحقـيقـة من نسب الناس، وبهذه الطريقة العميقة الرقيقة الجميلة نسبك إلى الناس بقوة الاعتصام بحبله عن طريق حبه الذي يملأ شغاف القلوب..

ورغما عن كونك هنا لتلقى الله تجد نفسك في شغل بالناس..

لقد دعاك الله وأنت في مكانك البعيـد لزيارته، وحينما أتيت ملبيا طلب منك أن تنضم إلى الناس.

إنك لن تدخل البيت لتحـملق فـيه، بل عليك أن تواصـل طوافك ولتبق حـذو الكتف بالكتف مع الناس.

الكعبة لا تعدو أن تكون مركزاً للفلك الذي تدور فيه..

لن تكون داخل الفلك إذا توقفت أو تركت موضعك أو تحركت عكس مداره..

لاتقف ولا تذهب يمينا أو يسـارا القـبلة أمامك فـارم ببـصرك نحـوها وواصل انطلاقك للأمام أنت منجـذب نحو شمس العالم الأرضي (الـكعبة) ودائر في فلكها، وبهـذا تصبح جزءا من نظام الوجود على الأرض.

حـركة الطواف هي حـركـة قرب مـن الله.. تدور وتدور حول الكـعبـة، ووسط هذا الكم الهائل من المنجذبين لا تلبث أن تنسى نفسك ولا ترى أحداً بل تراه (هو).

أنت الآن ذائب في هذا النـهـر الأبيض المنسـاب، فـأنت الآن: «لا شيء» يسـتـشـعـر وجوده! وأنت الآن: «الموجود» الذي لا يستشعر شيء!!

في طوافك أنت كـالجسيم في حـركتـه الدائرية التي تمثل فـلك ومـدار ومنسك من مناسك الحج.

وكل المعاني ترمز إلى الله تعالى..

***

أنت الآن في مقام التسليم..

عندما تتجاوز ذاتك فإنك تتخذ شكلا جديدا وتصبح ذلك الجسيم الذي يذوب تدريجيا ويتلاشى.

الحب في ذروته هو انطلاق، وأنت الآن متفان في الحب..

إنك تجسد الحب في صورة حركة، وأمثل تعبير عن الحب في صورة حركة هو حركة الفراش.

إنه يعني أن تتلاشى، وأن تذيب نفسك في هذا المحيط من الحب، ثم تخرج نظيفاً طاهراً بلا ذنوب تخطو نحو مقام إبراهيم..

اختصارا: يمكن القول إن الكعبة هي محور الحب في حين أنك البوصلة التي تدور حول محورها..

ماالذي أعرفه أنا؟.. هذا هو فهمي فقط، ولكنها ليست كل المعاني..

***

إن هاجر هي مثال الإنسانية:

لقد أمرها الله (الرحمن الرحيم) أن تترك بيتها ومعها طفلها الرضيع وجاءها الأمر بالذهاب إلى ذلك الوادي المخيف في مكة حيث لا زرع ولا حتى نبات شوكي يمكن أن ينمو.

لكن حب الله تعالى يدفعها لتطيع أوامره..

الأمر يبدو غريباً! امرأة ليس معها سوى طفل تضرب في عمق هذا الوادي الموحش ووسط البراكين الخاملة دون ماء وبلا مأوى وليس معها أحد! !

لكن لماذا كل ذلك؟!

إن الله يريد منا أن نخلص التوكل عليه سبحانه..

هذا المنطق ليس مفهوما بمعايير حكمتنا..

بل إنه يبدو غير منطقي!!..

إن الماء ضروري للإنسان البالغ.

والطفل الرضيع يحتاج للبن الأم..

والرجل يحتاج فوق ضرورياته لأصدقاء ومجتمع..

والمرأة تحتاج لمن يحميها،والأم فوق كل ذلك تحتاج لمن يعينها..

كل ذلك حق..

لكن الحب يمكن أن يعدل ذلك كله..

إن المرء يستطيع أن يعيش بالحب إذا كانت روحه تدرك معناه..

***

أنت أيتها الأمةَ الوحيدة والأم المرضعة التي لا حيلة لها..

أنت وطفلك توكلا على الله واستشعرا الأمن في الحب.. توكلا عليه.

***

مقام إبراهيم

بنهاية الشوط السابع تنتهي مرحلة الطواف..

لماذا سبعة أشواط؟!..

نعم.. إن سبعة هنا لا تعني ذلك المعنى البسيط: الرقم الذي يساوي ستة مضافا إليه واحد، ولكنه يذكرك بطبقات السماوات السبع..

الطواف هو معراج ولكنه معراج من أجل الناس، والحركة الأبدية في سبيل الخير العام..

إنه حج وليس مجرد زيارة دينية..

إنه تظاهرة أصيلة للوجود..

إنه ترجمة لعقيدة التوحيد وتفسير صادق لها..

***

عند مقام إبراهيم مصلى.. عليك أن تصلى ركعتين..

أين هذا المقام؟

إنه قطعة صخرية مطبوع عليها قدمي إبراهيم عليه السلام.

على هذه الصخرة وقف إبراهيم ووضع حجر الزاوية (الحجر الأسود)..

وعلى هذه الصخرة وقف هنا ليضع قواعد بناء الكعبة؟..

إن الوقوف بمقام إبراهيم يعني أن تقف حيثما كان يقف..

من؟! أنت؟!

ليس صعبا أن تدرك ماذا يمكن أن يفعل التوحيد بالإنسان..

في بعض الأحيان يتواضع بك حتى تكون لا شيء وينكر حتى وجودك ويلصقك

بالطين..

وأحيانا أخرى ينفخ فيك قدرا عظيما من سمو الروح حتى يرفعك إلى القرب من الله تعالى، وقد عانيت منه ماعانيت، وبعد ذلك تأتي الحالة الثانية (السمو الروحي والقرب من الله) بسجودك له سبحانه عند مقام إبراهيم، عندئذ سينادي عليك: أنت أيها العبد المخلص الخليل أيها العبد الصادق الأمين، يامن إذا أمرته أطاع، ويامن سخرت الوجود كله له، واصطفيته ليكون من عبادي المقربين..

***

مضت- بالتقريب- ساعةمنذ وقفت على ضفة هذا النهر الأبيض تفكر في نفسك وتراقب الناس ولا تريد أن تكون واحداً منهم..

أنت جسيم عاطل لا فائدة منه!

والله يوبخك: لقد كنت (صلصال كالفخار) و(حمأ مسنون) و(تراب)..

لكنك الآن حي متحرك تنتقل راجلاً وراكباً وطائراً..

لم تعد راكداً ولا متعفنا ولا كما مهملاً.

إنك الآن تزمجر، وتزيل الصخور، وتحطم السدود، وتنسق طريقك عارجا إلى بستان السماوات في وسط هذا الصحراء.

هاأنت الآن تتدفق مع النهر الأبيض وتروي الأرض وتسقي المزارع من نباتات وورود وفي نفس الوقت تبذر في التربة آلاف البذور حيث ينبت منها آلاف البراعم التي لا تلبث أن تزهر وتمتد عبر التربة وتشق الأرض صاعدة نحو السماء سامقة باسقة بأوراقها وثمارها..

أما إذا لم تتحرك فستغدو كالتراث الموروث وكالتميمة التي يتبرك بها ثم تصير جافاً قاسيا وقد يؤول الأمر إلي تشوهك ثم مسخك وفي ذات الوقت ستتحطم كل هذه الإمكاناتوتدفن..

﴿ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها وقد خاب من

دساها﴾[1].

أثناء تدفق النهر فإنه يهب الحياة للطبيعة الميتة كما كان عيسى عليه السلام يفعل، ولكنك إن أخلدت إلى الأرض وظللت كالحمأ المسنون منزويا تستمتع أو تقاسي فسوف تتعفن لا محالة وسينمو بداخلك عدد لا حصر له من الجراثيم، وسوف يتغير لونك وتصبح رائحتك منتنة لا تطاق..

تعال لتؤدي الحج!..

انضم إلى النهر الإنساني الأبيض لتطوف معه سابحاً!..

إن سباحة ساعة واحدة في (نهر الحب) ستجعلك تقلع عن عبادة الذات..

إن سباحة ساعة واحدة في (نهر الحب) ستخرجك من وجودك الميت لتستشرف حياة جديدة بين أناس ذوى وجود خالد في الفلك الدوار الحي..

***

الآن أنت كإبراهيم!

تبدأ المرحلة الثانية من النقطة التي بدأت منها الطواف..

عليك أن تخطو خارجا من دائرته كالحياة بعد الموت؛ حيث يبعث الإنسان من ذات المكان الذي توارى فيه...

روح الخير التي هي روح الله التي نفخها في هيكلك الطيني تتجلى الآن!..

من أين تتجلى؟..

تظهر في ذات المكان الذي دخلت منه إلى دائرة الطواف..

تحت يمين الله، وبعد أن تتجاوز ذاتك بالخروج عن نوازعها وقضاؤك على الأثرة والأنانية والخصاصة في نفسك.. عندئذ تكتشف ذاتك الحقيقية وأنت ترتدي رداء الإحرام الأبيض الناصع في بيت الله وتقف وأمامك مقام إبراهيم وقد وضعت خطوك حيث كان إبراهيم يرفع القواعد.

---

(١) الشمس: ٧– ١٠.

وجها لوجه مع الله.. ابدأ صلاتك.

***

يحفظ تاريخ البشرية لإبراهيم (عليه السلام) أنه أعظم متمرد وقف ضد الصنمية والوثنية، وأسس دعوة التوحيد في الأرض..

ورغم بدنه الذي أنهكته المعاناة والبلاء فقد كان ذا ذهن حاد وقلب مليء بالحب إلى جانب أنه كان يحمل فأساً في يده!!.. إنه بحق نبي المسؤولية والإمامة.

فيه قد أشرق الإيمان في معقل الكفر، وتفجر نبع التوحيد من بين أصنام مادية ومعنوية..

إن أول معركة لإبراهيم ضد الوثنية كانت في بيت أبيه (آزر) صانع الأصنام لقومه!

لم يقتصر إبراهيم على محاربة الأصنام والنمرود فقط، ولكنه كان يحارب معها الجهل والطغيان..

كان متمرداً على الرذائل.. رجل دعوة ورسالة وإيمان وعقيدة..

لقد كان عليه السلام مصدراً للأماني والآمال..

ألقى إبراهيم في نار الطغيان والجهل..

لكن عناية الله تمنع الاحتراق بتلك النار..

وإن هذه النار هي ذات النار التي أوقدوها في مصير مستقبل كل من يسلك سبيل إبراهيم من الأفراد المسؤولين المدينين للنور والرشاد من رجال دعوة الإسلام..

لكن الله عز وجل سيخلق وسط هذه النيران حديقة وردا!..

لا .. لن تحترق..

لا.. لن تتحول إلى رماد..

إن كانت أسوتك إبراهيم فقد تعرض إبراهيم لأنوع من النيران عديدة..

وهي رمز لمدى قربك من النار أثناء سعيك في مجاهدات الجهاد..

يالها من تجربة مريرة قاسية أن تقذف بنفسك في النيران، ولكن مع ذلك:

فالشهادة أشد إيلاما..

ياإبراهيم ضحي بابنك إسماعيل وانحر عنقه بيديك أنت حتى تحفظ أعناق الناس من النحر .

لكن.. أي ناس؟!

إنهم أولئك المؤمنون الذين يضحى بهم على أعتاب قصور السلطان، أو بالقرب من خزائن أصحاب الأموال الحرام، أو داخل مؤسسات الطغاة الدينية المتصفة بالخزي والنفاق..

شجاعتك في أن تنزع السيف من أيدي القتلة وتمسك به.

انحر عنق إسماعيل والله (ربك) سيدفع فديته.

هل ستقتله حقا؟! كلا لن تقتل ابنك ولن تفقده، ولكنك صرت أمة..

إن هذه معارج الإيمان، وكان لابد أن تصل إلى مرتبة التضحية بأحب ماعندك وبذات يديك.. **فالتضحية أشد إيلاما من الاستشهاد.**

***

تذكر أنك انتهيت لتوك من الطواف- طواف الحب- وتقف الآن في مقام إبراهيم..

عندما وصل إبراهيم إلى هذا المقام كان قد قطع حياة مليئة بالجهاد والكفاح ضد النمرود والأصنام، وواجه الموت محترقا في النار، وواجه كيد الشيطان، وضحى بابنه الوحيد إسماعيل، ومن قبل ذلك ومعه: كانت الهجرة والتشرد والوحده..

انظر إلى النقلة البعيدة: فبعد أن كان عاملاً في بيت آزر صانع الأصنام أصبح عاملاً في بيت الله يبني الكعبةقلعة التوحيد!!

هنا- في هذا المقام- وقف إبراهيم مخلفاً وراءه سنوات طويلة مليئة بالصعاب وقد غزا المشيب شعر رأسه..

إنه في ختام حياته القديمة- قدم التاريخ- يريد أن يشرع بناء في البيت وأن يرفع

القواعدمنه، ويضع الحجر الأسود، فبدأ في رفع القواعد وإسماعيل بجانبه يساعده يحمل الأحجار.

لقد بني البيت..!

إنه لمما يثير العجب حقاً أن يكون إبراهيم وإسماعيل هما بناة الكعبة!..

هاهو إسماعيل الذي نجاه الله من الذبح، وكذلك إبراهيم الخليل الذي نجاه الله من النار، والآن هما هنا يضطلعان بمسؤوليتهما تجاه الناس!

إن الله أمرهما أن يكونا المهندسين لأقدم معبد للتوحيد على الأرض وأول بيت وضع للناس في التاريخ والبيت الحرام للحرية وكعبة الحب والعبادة.

إن الحرم هو رمز (الطهارة والقداسة) الحقه و(التواضع).

***

أنت الآن في مقام إبراهيم.

إنها أرفع درجة ارتقى إليها سيدنا إبراهيم، وأقرب مرتبة إلى الله، أوقل هي درجة (القرب)..

إن إبراهيم هو البنّاء الذي بنى الكعبة، وهو مهندس بيت الحرية، وهو عدو الأصنام ومحطمها، وهو الذي تعرض للتعذيب على يد النمرود..

إن إبراهيم هو قائد جيش الجهاد ضد الجهل والكفر..

إنه ضمير الحب والمسؤولية.

ومع ذلك فقد هرب من إغواء الشيطان الذي يوسوس بأفكار الشر في صدور الناس:

﴿من شر الوسواس الخناس. الذي يوسوس في صدور الناس﴾[1].

بعد كل تلك الابتلاءات، وكل المعاناة التي تنوء بحملها الجبال الرواسي، وبعد كل ماتعرض له من تعذيب، وبعد كل ماقدم من تضحيات كادت تودي بحياته عليه السلام..

---

(١) الناس: ٥- ٦.

بني البيت..

لم يبنه لنفسه ولا لولده، ولكن: بيت للناس.. من أجل الناس..

إنه مأوى لكل الذين لا مأوى لهم..

إنه سقف وسماء لكل الذين أخرجوا من ديارهم..

إنه ملاذ للذين جرحوا في هذه الأرض، وملجأ للذين شردوا وهجروا في سبيل دعوة إبراهيم، إنه مصباح يضيء في ظلام الطغيان الذي يعانيه من اتخذوا إبراهيم أسوة لهم والذي عاناه إبراهيم قبلهم.

لقد امتلأت قلوب الناس ونفوسهم بالخجل والوجل والخوف، وتحولت الأرض إلى بيت كبير للعهر حيث لم يبق احترام لأحد، وإلى مسخ يسود في جنباتها الطغيان والتفرقة..

وهنا.. في هذه الصحراء.. في هذه الظلمات يوجد بيت حرام طاهر.. آمن لكل الناس. عيال الله.

هذا البيت هو : الكعبة!

***

في مقام إبراهيم ستصافح يد الله.

دع مافعله إبراهيم، وليكن نبراساً لك..

ولتكن أنت في هذا العهد إبراهيم! لتكن أنت مهندس كعبة الإيمان واشرع في البناء لإنقاذ قومك وعشيرتك..

اعمل على إخراجهم من هذا المستنقع الآسن، واجعلهم يعيشون معك الحياة الحقيقية بدلاً من حياتهم التي لا معنى لها والتي هي في حقيقتها أشبه بالموت..

أيقظهم من نومهم الثقيل، وحررهم من أسر ظلمات الجهل وعذاب الطغيان..

ساعدهم على الحركة، وخذ بأيديهم مرشدا وداعيا لهم للحج والطواف .

***

بعد رجوعك من الطواف، وبعد أن تشربت نفسك معانيه وإلهاماته وأنت قطرة ذائبة في نهر الناس، وبعد مقامك في إبراهيم في مكان بنائه للبيت ليكون مثابة للناس وأمنا وبعد عهدك مع الله تعالى أن تكون إبراهيم في مجتمعك..

بعد كل هذا وماسبقه عليك:

أولاً: أن تجعل أرضك آمنة كأنك في أرض الحرم.. ابدأ بنفسك وادع غيرك.

ثانياً: أن تجعل عهدك كعهد إبراهيم الخليل، وحالك كحال إبراهيم.. انتصار الإيمان والتوحيد..

ثالثاً: أن تجعل من كل أرض تكون فيها مسجداً حراماً؛ وذلك لأن الله جعل الأرض كلها مسجدا وطهورا..

إن الأرض كلها لله.. أليس كذلك؟!

***

بين الطواف والسعي

بعد أن تصلي ركعتي الطواف عند مقام إبراهيم عليك أن تذهب إلى (المسعى)..

إنه المسافه بين جبلي الصفا والمروه (حوالى ربع ميل)..

اركض سبع مرات بين هذين الجبلين..

ابدأ من جبل الصفا، وفي الجزء من هذا الطريق الموازي للكعبة [1] على أن تسير مهرولاً، وفي بقية الطريق استأنف سيرك المعتاد حتى جبل المروه..

السعي هو البحث.. حركة قاصدة إلى هدف.. يأخذ صورة الجري والإسراع.

أثناء الطواف كنت تفعل مثل هاجر.

وفي مقام إبراهيم كنت تقوم مقام إبراهيم وإسماعيل.

عند تبدأ السعي فأنت تفعل كهاجر مرة أخرى..

هنا مظاهر صادقة للوحدانية:

الأشكال والأنماط والألوان والدرجات والشخوص والحدود والمميزات والمسافات قد حطمت كل مافي المشهد الذي أمامك الآن رجل عارٍ وإنسانية مجردة.. لا شيءسوى الإيمان..

المعتقد والحركة في سمو وارتفاع.

هنا لا يرد ذكر أحد، وحتى إبراهيم وإسماعيل وهاجر هي أسماء وكلمات ورموز فقط..

كل الموجودات الآن في تحرك منضبط..

أي أن الإنسانية والروحانية متجردتان والمناخ الذي يحيط بهما ويملأ الأثير بينهما هو النظام..

---

(١) بين الميلين الأخضرين وهما علامتان، وذلك في الثلاثة أشواط الأولى فقط.

هذا هو الحج: قرار بالحركة الأبدية في اتجاه محدد..

وهذا هو نفسه طريق حركة الكون المحسوبة بحساب دقيق..

***

هنا في السعي ستلعب دور هاجر.. امرأة!

امرأة مسكينة، وأَمَةَ أثيوبية مستضعفة، وخادم لساره..

هذه كل مؤهلاتها.. هذا في النظام الاجتماعي البشري(نظام الشرك)..

أما في نظام التوحيد.. مجتمع الإسلام.. هذه الخادم هي التي تدعو الله تعالى، وهي أم الأنبياء العظماء.. أولي العزم من الرسل.

إنها عند الله تمثل أجمل وأعز مخلوقاته عنده سبحانه..

إنها في هذا العرض (مناسك الحج) هي الشخصية الرئيسية..

إنها في هذا البيت هي المرأة الوحيدة (الأم)..

***

لقد أمر الله تعالى هاجر بطاعته، ووعد بأن يكفيها هي وولدها:

«ياهاجر.. يا مثال التسليم والطاعة. يامثال البطولة العظيمة للإيمان والتوكل.. سوف تكونين في كنفي وتحت حمايتي».

أذعنت هاجر تماماً لإرادة الله، وتركت طفلها في الوادي..

هذا هو أمر الله ونداء الحب!!

هل معنى تسليم هاجر أن تقبع في سكون؟!

كلا.. نهضت هاجر من فورها ووحدها، وبدأت تجري من جبل جاف (الصفا) إلى جبل آخر جاف (المروه) بحثا عن الماء!..

إنها الحركة الدؤوبة والبحث المستمر الدائم..

لقد عزمت على الاعتماد على نفسها، تجرى بقدميها، وتستخدم إرادتها وعقلها التي

وهبها لها خالقها.

إن هاجر لامرأة مسؤولة، وأم محبة، ووحيدة تجول وتلهث باحثة عن الماء.. محتملة الألم والفزع.. مجردة من أي دعم.. لا مأوى لها ولا بيت.. معزولة بلا مجتمع.. بلا طبقة.. بلا جنس.. بلا توقع!

لكنها رغم كل تلك العوامل التي تدفع لليأس وتحقق الإخفاق في المسعى كانت هاجر **مليئة بالأمل!**

خادم.. وحيدة.. ضحية.. غريبة.. منبوذة.. مرفوضة.. مكروهة من النظام الطبقي والأعراف والأسرة.

هذه الأمة السوداء وحدها وطفلها على يديها! بعيدة عن بلدها، وعن بلاد الجنس الممتاز.. تجول في الصحراء غريبة كالمسجونة في شعاب هذه الجبال.

كل هذا وهي وحدها! لا تعرف الراحة .. ولكنها- رغم كل هذا- مليئة بالأمل والعزم في بحثها عن الماء تغدو وتروح من مكان لآخر ..

كل ذلك وحدها! .. تجرى على قدميها إلى قمم تلك الجبال تبحث عن الماء..

لم تكتف بالجلوس والنواح مسلوبة الإرادة.

إبراهيم أسوتها.. وهذا إحياء لسنته..

إنها ليست إلها.. إنها عبد.. أحد عباده..

لم تكن تنشد الرحمة في النار، بل كانت تبحث عن الماء!

الماء؟! نعم الماء..

كلا إنها لاتبحث في الغيب، ولا ما وراء المادة، ولا في معاني الحب، ولا فلسفة الخضوع، ولا فى الطاعة، ولافي الروحانيات، ولا المسائل الفلسفية ونظرياتها في الحياة..

كلا إنها ليست في السماء، ولا في الدار الآخرة..

كلا إنها هنا في هذا العالم.. إنها هنا تبحث عن مياه للشرب من منبع في الأرض..

هي مادية بحتة إذن!..

إنها تبحث عن ذات السائل الذي يتدفق في الأرض وتظمأ له الحياة..

إن البدن يحتاجه ليكون دما في عروقه..

إنه المكون للّبن الذي يملأ ثِدِيّ الأمهات ويروي ظمأ الأطفال..

إن البحث عن الماء رمز للبحث عن الحياة المادية الضرورية في هذه الأرض..

إن الحياة المادية على الأرض هي احتياج أصيل يبرز علاقة الإنسان بالطبيعة..

***

السعي هو عمل مادي..

السعي هو أن تستفرغ جهدك وتبذل طاقتك في سبيل الماء والخبز حتى تشبع حاجتك وتطعم صغارك الجوعى، وهو الطريق نحو حياة أفضل.

ابنك ظمآن وينتظرك في هذه الصحراء الجافة وواجبك أن تعثرعلى منبع تأتيه منه بالماء. السعي هو كفاح وبحث من أجل حاجتك من قلب هذه الطبيعة، ومحاولة لاستخراج الماء من الحجر..

السعي حركة مادية وحاجة مادية وهدف مادي وفعل مادي!

الاقتصاد هو الطبيعة والعمل.

الحاجة هي الطبيعة والإنسان..

***

ياللدهشة..

بحساب المسافة فالأمر لا يعدو أن يكون خطوات أو لحيظات معدودة من الطواف إلي السعي، لكن البون بينهما شاسع..

الطواف : الحب المطلق..

السعي : الحكمة المطلقة..

الطواف : كلهم (هو)..

السعي : كلهم (أنت)..

الطواف : إرادة الله وحدها..

السعي : إرادتك وحدك..

الطواف : كفراشة تدور حول النور حتى تتوهج ثم تغدو رمادا تذروه الرياح حتى تتلاشى في الحب وتذوب في الضياء.

السعي : كالنسر الذي يحلق فوق هذه الجبال السوداء، تعينه أجنحته القوية بحثا عن طعامه حتى يجده وسط الصخور.

إنه يهزم الأرض والفضاء، والرياح تضرب أجنحته الرقيقة وهو يطير حرا في الآفاق ..

السماء تمثل طموحه، والأرض تتضاءل تحت جناحيه..

إن الأرض لتغلب تحت نظرته الحادة اللامعة..

الطواف : هو الإنسان العاشق للحقيقة..

السعي : هو الإنسان باذلا وسعه معتمداً على الحقائق..

الطواف : حب.. عبادة..روح.. أخلاق.. جمال.. خير.. قداسة.. قيم.. حق..
إيمان.. تقوى.. معاناة.. تضحية.. تفان.. عدل.. تواضع.. مشاعر..
عبودية.. رحمة.. ماوراء المادة.. غيب.. إيثار.. رجاء اليوم الآخر ..إخلاص لله..

وخلاصة كل ذلك: هو كل مايجعل الروح الإسلامية تتحرك..

السعي: الحكمة.. المنطق.. الحاجة.. الحياة الدنيا.. الحقائق.. الأهداف..
المادة.. الامتيازات.. التفكير.. العلم.. الصناعة.. السياسة.. الفائدة.. اللذة..
الاقتصاد.. المدنية.. الجسد.. الحرية.. الإرادة.. السيادة (أي السعي من أجل الذات في الأرض)..

وخلاصة كل ذلك: هو كل مايسعى في سبيله الماديون..

الطواف : الله وحده.

السعي : الإنسان وحده..

الطواف : الروح ولا شيء غير الروح..

السعي : الجسد فقط..

الطواف : معاناة الوجود والإشفاق من الدار الآخرة..

السعي : لذة الحياة والمعاناة في هذا العالم..

الطواف : السعي من أجل الظمأ..

السعي : البحث من أجل الرِيّ..

الطواف :الفَرَاش..

السعي :النسر..

***

فريضة الحج هي التي تربط بين الطواف والسعي، وتحل التناقض الذي أشكل على الإنسان عبر تاريخه : المادية أم المثالية؟.. العقلانية أم الروحانية؟.. الدنيا أم الآخرة؟.. الشهوانية أم الرهبانية؟.. إرادة الإنسان أم إرادة الله؟.. التوكل على الله أم الاعتمادعلى النفس؟..

الله تعالى– رب إبراهيم– سوف يعلمك الإجابة في كلمة واحدة: كلاهما!!

وهو درس لا يقدمه لك في كلمات، ولا يعرضه أمامك لتراه من بعيد، ولا يدخلك معملاً لتجرب وتخطيء، ولا يدلله لك بالأدلة والبراهين الفلسفية.. كلا.

إنك ستؤدي هذا الدور بنفسك، وهو دور سبقك إليه نموذج إنساني علم الفلاسفة والعلماء والمفكرين من الباحثين عن الإيمان والحقيقة هذا النموذج الإنساني صاحب هذا الدرس الإلهي الجليل امرأة سوداء.. أمة أفريقية.. وأم .. (إنها هاجر) مرة أخري!

استجابت لأمر الله، وأسلمت لإرادته المطلقة تركت وطنها وجاءت ومعها طفلها بعيدا عنه.

بعيدا في هذا الوادي المقفر الموحش مكة.

توكلت تماما على الله.. على حبه، وبقوة الإيمان أنكرت كل منطق وكل معقول..

ذلكم هو الطواف..

لكن على غير مايفعله من يسمون بالصالحين والعابدين!! لم تجلس ساكنة بالقرب من ولدها.. لم تنتظر حدوث معجزة.. لم تتوقع يدا خفية تجلب لها فاكهة من السماء أو تشق نهراً يروي ظمأها.

كلا! لقد تركت وليدها في يد الحب.. يد الرحمة، وطفقت تجري في الحال..

لقد قررت أن تجري في الحال بين الجبال الصماء.. جبال مكة توجد امرأة.. وحدها.. عطشى.. مسؤولة.. غريبة، تتجول في بحث لا طائل وراءه عن الماء!..

يا الله!..

هل نحن نتحدث عن هاجر أم عن الإنسان؟!

لقد أجهدت نفسها دون جدوى، وعادت يائسة إلى ابنها..

ياللدهشة!!.. ماهذا؟!!

الطفل الذي تركته تحت مظلة الرحمة في حالة من العطش والإجهاد تدفق الماء من بين الرمال تحت كعبه!

في اللحظة التي بلغت فيها منتهى اليأس، ومن مكان لم تكن تتوقعه.. فجأة دون مقدمات ظهر الماء هناك..

إنها المعجزة.. قوة الحاجة.

إنها رحمة الله.. خرير.

صوت الماء المنساب..

إنها زم زم.. مياه عذبة تهب الحياة.. تتفجر عيونا من الصخر!

هذا هو الدرس: لكي تحصل على الماء فبالحب لا بالجهد.. لكن بعد الجهد.

إنك لا تستطيع أن تتقرب منه بقوة جهدك لكن عليك أن تستفرغ مافي وسعك..

حاول سبع مرات– وهو ذات الرقم الذي بلغته أشواطك في الطواف– لكن في هذه المرة لم تتبع طريقا دائريا لا يقودك في النهاية إلا إلى المكان الذي بدأت منه من نقطة الصفر.

كلا لن تسافر في دائرة مفرغة لا توصلك إلى مكان ولا تكسبك شيء وتجعلك تتحرك بلا هدف.. اعمل لتملأ بطنك واملأ بطنك لكي تعمل! في النهاية استمر في العمل حتى تموت!!

الطواف: أن تحيا.. لا من أجل أن تحيا، ولكن من أجل الله..

السعي: أن تبذل وسعك.. لا من أجل نفسك فقط، لكن من أجل الآخرين أيضا وهنا يصبح طريقك مستقيماً..

إنها هجرة..

ابدأ من نقطة محددة حتي تبلغ نقطة الوصول..

إنها المسار بين الصفا والمروة.

***

أثناء السعي أنت تكرر حركة المجيء والذهاب سبع مرات..

الرقم (٧) رقم فردي وليس زوجي، ولهذا فإن سعيك سينتهي عند المروه وليس في المكان الذي بدأت منه..

سبع مرات! سبعه.. رقم رمزي يمثل الدوام فكل حياتك للمروه!

ابدأ بالصفاء التي تعني الحب الخالص للناس، ونقطة وصولك ستكون المروه التي تعني مُثُل وقيم الإنسان وسبب تكريمه وسخاءه وعفوه عن الآخرين..

من هم الآخرون؟.

الآخرون هم الذين يحاولون معك..

***

أنت أيها الإنسان غريب.. مشرد.. منفـي عن الأرض.. إحساس بالمسؤولية يحثك أن تبـحث عن الماء في السراب.. امـض إلى الصفـا كمـا فعلـت هاجر، وانظر إلى الطوفـان الأبيض من الناس يحاول.. اهبط مسرعا من الـصفا بلا راحة وفي حالة من العطش.. إنهم يحـاولون البحث عن الماء في هذه الصـحراء الحـارة المجدبة ثم يواصلون الـسعي من قـمة المروة ولا يجدون الماء .. لقـد جفت الشفـا والأيدي خالية والنظرة حـسيرة يعـودون مرة ثانية إلى الصفا ويبدأون البحث..

هذه الخطوات تتكرر سبع مـرات، والماء لا يتم العـثور عليـه، ولاشيءيروى ظمـأهم، لكنهم في عزيمة يصلون إلى المروة..

وأنت أيتهـا القطرة انضمي من قمـة الصفا إلى هـذا النهر وكافـحي واعطشى وادفعي بنفسك داخل هذا الطوفان البشري الأبيض..

ابذل جهـدك في السعي مع الآخرين.. في منتصف سعيك وأنت موازٍ للكعبة أسرع إلي الأمام مع الآخرين في الهرولة..

***

التقصير

في نقطة النهاية من سعيك عند المروة قص شعرك وقلم أظافرك واخلع ثياب الإحرام وارتد ثيابك المعتادة(١).. استشعر الحرية، وبيدك الخالية وفي حالة من الظمأ اذهب لتلقى إسماعيلك.

اصغ جيداً! ألا تسمع خرير الماء من هنا! انظر طيور عطشي تحلق فوق هذه الصخور المقفرة! زمزم قد روت ظمأ إسماعيل..

قبيلة أجنبية من أرض نائية توطنت في هذا الوادي القفر..

عطشى الأرض من الناس تحلقوا حول زمزم..

مدينة الحجر قامت في هذه الصحراء العطشى اليابسة..

هنا تدفق وابل الواحي وقام البيت العتيق بيت الحرية والحب!..

***

عندما تركض في المسعي وأنت ظاميء ووحيد فستنتهي وحدتك..

هنا زمزم تجري تحت قدمي إسماعيل والناس من فجاج الأرض حولك..

ثم ماذا ترى غير ذلك؟

إن الله في جوارك وقد أصبحت في معيته..

***

أيها الإنسان المتعب من السعي استعن بالحب..

أيها الإنسان المسؤول افعل مافي وسعك إن كان إسماعيلك عطشانا..

أيها (العاشق) تمنى!

وليكن رجاؤك الحب والأمل والمعجزات..

---

(١) راجع الفقرة الواردة آخر هذا الفصل بعنوان «ملحوظة».

وأنت أيها المعتمر القادم من السعي ومن صحراء وجودك المجدبة وعمق الركود الذي لحق بطبيعتك...

الينبوع يتفجر..

اصغ جيدا إلى قلبك.

ستسمع الخرير!

***

من جبل المروة اذهب تلقاء بئر زمزم، وخذ جرعات منه وتضلع، واغسل وجهك، واحمل بعض الماء معك إلى ديارك عسى أن تهديها لقومك.

***

ملحوظة: كل ماورد في الفصول السابقة متعلق بجزء من الحج أو العمرة (حج التمتع) وبالنسبة للعمرة يتاح للمسلم أن يقوم بها في أي وقت خلال العام ماعدا أيام الثامن والتاسع والعاشر من ذي الحجة لأنها أيام الحج الأكبر الذي سنبحثه في الفصول القادمة..

***

الحج الأكبر

في اليوم التاسع من ذي الحجة يبدأ الحج الأكبر..

قبل هذا اليوم عليك أن ترتدي ثياب الإحرام وتغادر مكة..

أين أنت في هذه اللحظة؟!

لا يهم في أي مكان تكون : في المسجد الحرام.. بالقرب من الكعبة.. في فندقك.. في الشارع لابد في كل الأحوال أن تغادر مكة..

ياللعجب!.. أتترك الكعبة خلفك؟!

نعم.. إنها القبلة، ولكن الحج الأكبر يستهل بمغادرة مكة.

ألم تترك أسرتك وبيتك وغير ذلك حتى تأتي مكة وتستقبل القبلة؟!

نعم.. إن الأمر كذلك، وهكذا كان الحال في العمرة.

إذن لماذا تغادر الكعبة؟!

لأنك ذاهب لتبدأ الحج لأكبر..

***

إن قرار الذهاب لمكة ليس هو غاية الحج النهائية، ولا حتى الوصول إلى الكعبة قبلة الناس كما يتبادر إلي الذهن عن غلط وسوء فهم.

إمام التوحيد إبراهيم عليه السلام يعلمك أن الحج لا ينتهي في الكعبة، ولكنه يبدأ في اللحظة التي تغادر فيها الكعبة.

هي ليست نقطة الوصول، ولكنها نقطة المغادرة..

أنت مازلت في الكعبة، ويجب أن تكون مستوعبا، ومتجاوزاً رغباتك الشخصية، وأن تهزم عبادة الذات غادر حدودك، واكتشف نفسك..

أنت أيها المهاجر إنك ذاهب لترى الله، ومن الآن فصاعدا ستمضي في طريق مختلف

وستدخل أرضا جديدة..

في الميقات والعمرة كان عليك أن تترك بيتك، ولكنك ستترك بيت الله!!

***

عندما تشرف على التسليم الكامل، وفي ذروة تحررك من ذاتك، وحينما تكتشف دخيلتك تصبح كفؤا لطاعة أمر الله..

(اترك الكعبة فأنت الآن أقرب إليّ من الكعبة)

زر الكعبة في عمرتك (الحج الأصغر) فهي معينك على اكتشاف ذاتك..

أنت الآن ذاهب لتقترب من الله لا لتزور البيت .

أنت الآن ذاهب لتري المالك.

﴿وإلى الله المصير﴾(1)

الكعبة هي الاتجاه فقط وليست نقطة الوصول.. هي القبلة.

إنك تبدأ منطلقا من الكعبة لكنك يجب ألا تبقى في الكعبة.

في أي مكان تتوقف فإنك تتعرض للضياع والموت..

أيها الحاج البادىء رحلته وصاحب المحاولة الأبديةفي القربى إلى الله..

أيها الإنسان ياروح الله..

أيها المؤمنون العاملون الصادقون..

لقد جئتم إلى مكة..

لا تبقوا هنا..

لا تتوقفوا عند المسجد الحرام ساكنين عنده..

إن الله قد ولّى وجهك نحو القبلةحتى لا تضل بالقبلات الأخرى.

الكعبة هي وجهتك وهدفك وقبلتك، لكن عليك وأنت في مكة أن تتجه إلى مكان

---

(1) فاطر : ١٨.

آخر تذهب إليه هناك ثم تأتي إلي مكة[1].

هكذا تغادر مكة– دون أي تحفظات– مرتديا ثياب الإحرام.. معطيا ظهرك للكعبة متجها إلى مكان شديد القداسة.. ترى أي مكان هو؟ واصل تحركك وسترى..

***

(١) المقصود الخروج لمواقيت الإحرام للحج الأكبر بعد التقصير من إحرام العمره وهو حج التمتع كما سبق بيانه. (المراجع).

عرفات

وأنت في لباس الإحرام تغادر مكة وتبدأ رحلتك نحو الشرق (عرفه) حيث تبقى فوقه، وذلك في اليوم التاسع من ذي الحجة..

في رحلة العودة عليك أن تقف وقفة قصيرة في (المشعر الحرام)[1] ثم في (منى).. لماذا؟.. سنعرف ذلك حالاً.

وعلى عكس ماسبق أن قلناه، ولا تمضي الهوينا في سيرك إلى عرفات بل يجب عليك أن تحث الخطى أشعث أغبر دون التفات إلى شيء كالعاشق الولهان لا يشغله عن معشوقه شيء، وذلك ابتداء من فجر يوم التاسع[2] وحتى يوم الثاني عشر (أوالثالث عشر إن شئت) يجب أن تبقى بمنى.

ليست هناك معالم تميز هذه المناطق الثلاث[3] عن بعضها، فهي لا تعدو أن تكون طريقا ضيقا طويلاً يمضي خمسة عشر ميلاً ويتصل بوادي مكة..

على طول هذا الطريق لا تجد أي أثر تاريخى أو طبيعي أو ديني، ولا حتى علامة تفصل بين هذه الأماكن.. فأنت الذي تحدد الحدود بينها حسب مراحل حركتك المفروضة عليك والواجبات المنوط بك أداؤها..

ففي منى عليك أن تبقى يومى الحادي عشر والثاني عشر وهما اليومان اللذان يعقبان يوم الأضحية (اليوم العاشر) رغم أنك– على الأغلب– ستقدم أضحيتك وترمي الشيطان قبيل ظهر اليوم العاشر، لكن مع ذلك عليك أن تبقى في منى..

كما تعلم.. إنك لا تبقى لتقيم، ولكن لتقف وقفة قصيرة على طريقك.. تقف مع القافلة حيث تقف وتسير معها حيث تسير..

هناك معنى آخر يجعل (الوقوف) في هذه (الفصول) الثلاثة أكبر من مجرد البقاء نهار اليوم التاسع، أو جمع سبعون حصاة من المشعر الحرام.

---

(١) هو جبل يسمى (جبل قزح) بجوار مسجد المزدلفة.
(٢) هناك فقهاء يوجبون مغادرة مكة في اليوم الثامن والمبيت بمنى ومنها إلى عرفات فجراً.
(٣) المقصود عرفات والمشعر الحرام ومنى.

صحيح أن في كل فصل هناك وقفة قصيرة ثم تمضى إلى الفصل التالى، وصحيح أن منى هي المرحلة الثالثة وستبقى بها ثلاثة أيام، ولكن عليك أن تتذكر أنها ليست نقطة الوصول..

إذن أين ستنتهي هذه الرحلة؟!.. أين خاتمة المطاف التي ستصل إليها هذه القافلة؟

عفوا!.. البعثة؟

حيث لا حيث..

إذن. إلى أين أنت ذاهب؟

الإجابة أنك ذاهب إلى الخلود.. تلقاء الله..

إن الله هو الكمال المطلق.. وهو الخالق.

إذن.. رحلتك حركة متوجهة إلى (الجمال) المطلق، و(المعرفة) المطلقة، و(القوة) المطلقة.. إلى الخلود والكمال.. والحركة إليهما حركة خالدة.

في هذه الرحلة ليس هناك نقطة نهاية.. نقطة وصول، ولكنها رحلة إلى الله.. جهة الله تعالى.. تلقاء الله.

على مستوى الحياة الدنيا، وبالنظر إلى الإنسان نجد أن كل شيء له أجل محدد ونهاية يصل إليها هي الفناء والموت، لكن الحركة تلقاء الله حركة أبدية تبقى مستمرة؛ لأن الوجهة هناك ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾[1].

لقد بدأت من مكة وجئت إلى عرفة، والآن تنتقل من طور إلى طور راجعا إلى مكة ﴿**إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾[2].

كل الذي بحثناه .آنفا هو (حركة).. حركة متقدمة (ذاهبة) وحركة قادمة (راجعة)..

هناك دائما حركة باتجاه شيء (إليه)، وليس (فيه)، وهذا هو الذي يجعل الحج حركة

---

(١) القصص: ٨٨.

(٢) البقرة: ١٥٦.

مطلقة.

إن الحج ليس pilgrimage[1]؛ لأن كل pilgrim[2] له نقطة وصول، والحج ليس مجرد رحلة؛ إذ أن كل رحلة لها نقطة وصول.. الحج هو غاية مطلقة وحركة خارجية تلقاء هذه الغاية. وهذه الغاية ليست نقطة يمكن أن ينتهي إليها الإنسان، ولكن يحاول التقرب إليها..

ولهذا فعند قدومك من عرفة تبقى في منى خلف جدار البيت وليس داخل البيت، وهذا هو معنى التقرب إلى الغاية وليس الوصول إلى الغاية..

في طريق الرجوع إلى الله هناك ثلاث مراسي: عرفه، المشعر، منى لابد أن ترسو عند كل منها..

إنها ليست مجرد ثلاث أماكن تقوم بزيارتها..

عليك أن تعي تماما ماالمقصود بكل وقفة من هذه الوقفات الثلاث..

وعليك أن تدرك دلالات قرارك بالوقوف ومتابعة الرحلة (النية).

فما الذي تعنيه هذه المراحل الثلاث؟

من الأسماء العلوية التي سماها الله تعالى لها ندرك هذه المعاني:

عرفة : تعني العلم والمعرفة..

المشعر : يعني الوعي والشعور..

منى : تعني الحب والإيمان..

اذهب من مكة إلى عرفات: «إنا لله».

ثم ارجع من عرفات إلى مكة: «وإنا إليه راجعون».

عرفة تمثل بدء حياة الإنسان على الأرض ؛ فقد جاء في قصة آدم عليه السلام:

---

(١) تعني في اللغات اللاتينية زيارة الأماكن المقدسة أو زيارة دينية، وتستعمل في معظم الأحيان مقابلاً لكلمة حج في الإسلام ولكنها لا تعبر عن المعنى كما يوضح المؤلف فيما يلي.

(٢) تترجم بمعنى حاج أو زائر للأماكن المقدسة ولا تعبر أيضاً عن معنى الحاج لدى المسلمين.

بعد أن هبط آدم إلى الأرض لقي حواء في عرفات وهناك تعرفا على بعضهما، وكان الهبوط بعد أن أمر آدم بترك الجنة «بعد أن عصى».

إن تلك الجنة لم تكن هي الجنة الموعودة في الدار لآخرة، بل هي جنة على الأرض، كما كان مسقط رأس آدم وميلاده على الأرض، وكانت الأرض آنذاك تغطيها الشجيرات والبرك، وكان آدم يعيش دون تبعات ولا أعباء يأكل ويشرب ويتمتع دون قيود حتى جاءه إبليس الذي عصى أمر الله رافضا السجود لآدم وبدأ يوسوس له؛ فكما أن الله يلهم الصالحين والفاجرين بين الناس بالخير فإن إبليس يوسوس لهم حتى يتعدوا حدود الله فيعصون الله ويأكلوا من (الفاكهة المحرمة)..

وهكذا وسوس إبليس لآدم بأنه لو فعل ذلك وأكل من الشجرة فإنه سيحيا حياة أطول وأكثر إشراقا.

رفض آدم في أول الأمر أن يأكل من الفاكهة المحرمة، لكن الشيطان استطاع أن يغوي حواء عندها غوى آدم بعد أن وافقها وأكلا من الشجرة..

إن آدم يمثل الحكمة، وحواء تمثل الحب، والحكمة والحب هما مكونات الإنسان من بني آدم..

آدم هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يقترف المعاصي ويتوب عنها..

إنها الحرية والاختيار بين الطاعة والمعصية..

إنها المقدرة على اتخاذ القرارات..

إن هذا الأمر يتوافق مع مفهوم «المسؤولية» و«الوعي».

ونتيجة للمعصية فقد استبدلت حالة الرضا والمتعة والراحة بأرض «الحاجة والطمع والألم..» أو بالتعبير القرآني: «الهبوط»

فكانت بداية حياة جديدة للفرد ذو الوعي والمسؤولية صاحب المعصية: آدم..

كان آدم ضحية الألم والحاجة والطمع كان يعيش منفيا وحيدا في سجن هذه الدنيا.. لقد قاسى آدم من هواجس الانفصال، وعبر عن شكواه لغة الإيمان والمعرفة والقلب والأدب والحياة وتقبل عبء المعصية أو «الخوف الفطري من الذنوب» و«الرغبة الفطرية

في التوبة»..

***

كيف يتعلق الحج بذلك؟!

إن الحج يمثل خلق الإنسان وتوبته..

الحج هو إطاحة بالذات الواعية التي تعيش إحساس بالغربة والنفي والتي تنتج قرار (العودة)..

إن تحول آدم من الجنة إلى الأرض يمثل شخصية وسلوك الإنسان اليوم.

إنه تصوير للعصيان والعدوان الذي يقع بين الرجل الواقع تحت تأثير الشيطان، وحواء، والمطرود من السماء والمنفي في الأرض والخاضع لكل ضغوطها..

رب ضارة نافعة! فمع أن آدم أكل من الفاكهة المحرمة إلا أنه.. نتيجة لذلك- تعرف على الحكمة والوعي والبعد الحقيقي للعصيان. ثم فتح عينيه فإذا هو عار.. لقد دخل إلى مرحلة التعرف على الذات.

وسيراً على نفس الطريق: فالهبوط من الكعبة إلى عرفه يمثل بدء خلق الإنسان؛ فزمان خلق الإنسان هو نفسه زمان خلق المعرفة..

ثم كان أول شعاع للحب عندما التقى آدم بحواء وهما يرتقيان في الفهم المتبادل كل منهما للآخر..

كانت تلك علاقة تعارف جنس على جنس آخر من نفس الفصيلة! من نفس الأصل هكذا- من وجهة نظر فلسفية- نعلم أن وجود الإنسان معاصر لوجود المعرفة..

ومن وجهة نظر علمية فإن تاريخ الإنسان يبدأ بالمعرفة..

ياللغرابة!..

في الحج تبدأ الخطوة الأولى من عرفات (الوقوف بعرفة).. زمنه نهاراً. ويبدأ مع ظهر اليوم التاسع.. وقت الزوال حيث الشمس أسطع ماتكون.

والملاحظ اختيار هذه الفترة الزمنية بالذات حتى تكتسب الوعي والبصيرة والحرية

والمعرفة والرحمة في ضوء الشمس!..

عند مغرب الشمس ينتهي الوقوف بعرفة.. عندها تبدأ العتمة حيث لا يرى شيء فيها فتزول سطوة المعرفة والموجودات..

مع نزول الشمس في سهل عرفات ينزح الناس نحو الغرب مع حركة الشمس..

إنهم يواصلون المسير حتى المشعر الحرام إنها أرض (الشعور) حيث يكون لهم وقفه أيضا..

إن المرحلة التي تلي المعرفة هي الشعور..

ياللغرابة!..

المعرفة أولاً ثم الشعور؟!..

الناس يأخذون الأمر كمسلمة في أن الشعور يسبق المعرفة، لكن الخبير العليم- خالق هاتين الحالتين الذهنيتين- يشير إلى عكس هذا الترتيب!.. آدم التقى بحواء (الجنس الآخر) وتشاركا في الرؤى والأفكار ومنه إلى فهم كل منهما للآخر.. انتهت حياتهما الفردية بتأسيس الأسرة التي تولد الحياة الاجتماعية وخلق الحب الواعي فوق ذلك.. ومعنى ذلك أن اتحاد اثنان من البشر قد بدأ بالمعرفة، وتطور المعرفة هو الذي أضاف الشعورإلى الإنسان الذي أعطى ميلاد العلوم التي أضافت مزيداً من الفهم وبالمقابل فقد رفع ذلك من شعور الإنسان..

إلى أين ينتهي ذلك؟..

إنها تنتهي إلى مزيد من التقدم العلمي.

فعند ما تكون الموضوعية، والعلاقات بين الأفكار والعالم الخارجي تقومان على أرض الواقع فإن الحكمة ستنمو والإدراك سيتحسن والقوة الروحية للإنسان ستزدهر.

لو أن المشعر الحرام (الشعور) سبق عرفات (المعرفة) لكان الأمر مجرد تنظير ومثالية ميتافيزيقية.

ولو كانت البداية من منى (الحب) لكان الأمر مجرد دين مفتقد البصيرة لا معرفة له ولا شعور..

ولو كانت عرفات (المعرفة) وحدها هي كل المراحل لكان الأمر مجرد مادية غليظة وحياة علمية جافة ذات حضارة بلا روح وتقدم بلا هدف.

ولو كان المشعر الحرام (الشعور) ومنى (الحب) وحدهما دون وجود عرفة (المعرفة) لكان الأمر كحال المسلمين الراهن من الفهم لإيمانهم القاصر على المشعر (الشعور) ومنى (الحب) دون وجود لعرفة (المعرفة)..

لكن في دين الإسلام حيث الإنسان المخلوق من حمإ مسنون ونفخة روحية ربانية وقد امتلك السلطان عندما أصبح محل أمانة الله، واستهل عمله بالمعرفة وأدرك حقائق هذا العالم بطرق علمية موضوعية، وأعقب ذلك اكتسابه للشعور، ثم تمكن أخيراً من خلق (الحب).

هذه المراحل الثلاثة من عرفات إلى المشعر ثم إلى حيث يرتقي إلى ذروة الكمال الإنساني في العروج إلى الله عند سدرة المنتهى (منى).

الواقعية؟!

نعم.. كأساس لا كهدف..

هي الأساس الذي تبدأ منه كفاحك في سبيل المثال والغيب..

فالواقعية ضرورية كأساس مادام الإنسان– وفقا لعقيدةا لإسلام– بعضه من طين الأرض وبعضه من روح الله العلوية..

وبالإرادة والقرار (النية) يتزود الإنسان أثناء تساميه من الطين إلى روح الله..

هذا التسامي وهذا الارتفاع هوما تمارسه عندما تعبر المراحل الثلاثة: عرفة، والمشعر، منى.

في ضوء المفاهيم التي طرحت يمكن أن نعبر عن المعاني الآتية ونبرز مافيها من جمال:

الإيمان : طريق..

المعرفة : إدراك..

الرسالة : مرشد ودليل..

الأمة : جماعة قاصدة..

الإمامة : القيادة والتوجيه..

الشهيد والشاهد : معالم للحركة..

العبادة : التفاني وتعبيد الطريق..

التقوى : تقويم للنفس وتدريب لها على أن تكون عاصيا مسؤولاً، فتتجنب الأشياء التي تجذبك للحمإ المسنون وتقعد بك عن السير..

سبيل الله : سبيل بذل النفس والمال في سبيل الإصلاح للناس..

الصلاة والدعاء : حضور أمام الله ونداء له وسؤاله والتضرع إليه بحاجاتك وأمانيك وحبك وبغضك وماتقترحه لنفسك وماترجوه للآخرين..

الذكر : أن تبقيه في ذهنك وأن تتفكر..

الحج : الإرادة والقرار.

***

الآن وصلت إلى (عرفة) وهي المسافة الأبعد من مكة حيث يمتد سهل جاف تغطية الرمال الناعمة.. في الوسط يمكنك رؤية جبل الرحمة وهي ربوة صخرية صغيرة حيث وقف النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وخاطب الأمة بوصيته الأخيرة (خطبة الوداع).

إن عرفات لمدينة عجيبة حقا! تزورها لمدة يوم واحد ثم تذهب المدينة مع الريح بعد الغروب.

هنا تزول الفواصل والحدود لتتحد الأمة التي لا تقوم على التعصب لجنس ولا لعرق إنما على الإنسانية العالمية؛حيث ينخفض التمايز إلى الحد الأدني وسط مجموعات تمثل العالم كله في هذا السهل تحت الخيام البيضاء الممتدة من الأفق إلى الأفق، وحيث الأرستقراطية هي منتهى الضعة والجمال المصطنع قبح.

***

إنك قد تسأل نفسك : ماالذي يفترض أن أراه هنا؟! ماالذي ينبغي أن أنجزه؟!

والإجابة: لا شيء.. إنك حر تفعل ما تشاء! بإمكانك أن تقضي اليوم سابحا في المحيط البشري، أو تقضيه نائماً.. فقط تذكر أنك في عرفات.

يقول أندريه جيد[1]: ينبغي أن تكون العظمة في نظرتك لا فيما تراه.

دع فطرتك وطبيعتك تشرق تحت الشمس الساطعة في عرفات.

وأخيراً (وعلى عكس عادة الإنسان عبر التاريخ): لا تفر بعيدا عن أشعة الشمس والضوء والحرية والزحام.. دائما اظهر مع الناس.

ففي الماضي كنت تعيش تحت نير القهر جاهلاً، كالطحلب في المياه الراكدة!

أما الآن عليك أيها الإنسان أن تخرج من خيمتك دافعا نفسك إلى عمق المحيط البشري تاركاً (الأنا) تحترق تحت شمس عرفات المتوهجه. ليوم واحد فقط!

كن كالشمعة التي تحترق لتضيء أفئدة الناس، لا كالشمعة التي تذوب في أيدي الطغاة..

لا تكن دمية..

إن جوهر المطلوب منك ليس هو بروزك للشمس- فلك أن تقضي هذا اليوم كما تحب- إنما المطلوب فقط هو الوقوف ثم اترك سهل عرفات بعد غروب شمسه.

***

(١) أديب فرنسي (١٨٦٩- ١٩٥١) متمرد على الأعراف والقيود المتوارثة.

المشعر(١)

هاهي الشمس قد غابت عن عرفات وآن لك أن تذهب..

لقد فقدت عرفات وكانت نهايتها مع ظلمة الليل، فلا مبرر لبقائك هنا بعد أن قرر الجميع وعزموا على التحرك.

حينما يبدأ الليل في التوغل لن تجد أحدا من المسلمين هناك..

إنها مدينة الشمس المشرقة!، فالشمس تذهب فجأة مسرعة لتتجاوز السهل وتختفي في الغرب..

لكن إلى أين أنت ذاهب؟ إلى المشعر؟!

ليس بإمكانك الراحة.. مجرد وقفه قصيرة وذهاب سريع..

وقفه؟ .. لا سكن؟ .. لا استقرار؟

نعم .. لا مكان!.. وقفه لنصف يوم، هذا كل ماهنالك.. الخيام التي نصبتها البارحة يجب أن تطوى كلها اليوم..

لقد وصلت إليك الرسالة:

أيها الإنسان إنك ستعيش على هذه الأرض فترة قصيرة..

أيها الإنسان إنك مجرد لحظة في عمر الحركة الأبدية.. إنك فان.

أيها الموجة* إن وجودك يتوقف على حركتك، وأنت ميت إذا كنت سلبيا.

في الفناء ستكون كاملاً إذا كان قرارك مطلقاً..

أيها القطرة تدحرج إلى النهر البشري الفياض وتدفق..

---

(١) جاء في لسان العرب: المشعر (المعلَم)، والمشاعر: (المعالم) التي ندب الله إليها وأمر بالقيام عليها، ومنه سمي المشعر الحرام لأنه معلم للعبادة وموضع للوقوف عنده.

* يقصد أن مجموع البشر موجات بحر متلاحقة.

﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنت قبله لمن الضالين﴾[1].

***

عليك أن تكون عند المشعر مع حلول الظلام.

الناس يتزاحمون مجتمعين وهم يفيضون من عرفات تجاه الوادي في طريقهم إلي منى ثم إلى مكة..

وهاهي عرفات- تلك المدينة التي توقفت فيها ليوم واحد- ذهبت مع هبوب رياح الغروب ومع فيضان النهر البشري منها.

في لون واحد ووجهة واحدة انساب الناس حول حجارة جبل الرحمة كأنهم يفرون من الظلمة مسرعين على منحدر الوادي..

الآن خيم الليل على سهل عرفات..

أنت الآن نقطة علي خط الرجاء، وقطرات الإيمان المتدفقة الفياضة مع النهر.. جاهد مع هؤلاء الذين داهمهم الليل فجأة بالرجاء والإيمان..

يا للحيرة!

إن الأمر يبدو كأن مدينة الشمس المشرقة قد أذابتها حرارة عرفات الشديدة، والآن مدينة الليل قد غطت هذه الأرض كالبركان الخامد..

مامن شخص هناك إلا وذاب وسط الزحام وزحف الظلام إلى كل مكان.

لكن ماهذا الذي يخشاه الإنسان هنا؟!.. فالطريق ثابت وآمن!..

تنشأ المفارقة والمأساوية من تزامن اكتشاف نفسك مع ضلالك للطريق..

التضحية بالنفس على الطريق القويم هي الخلاص، والتضحية بالنفس في سبيل الله هي التبتل الصادق والعبادة الخالصة.

أيها الإنسان! إن الله ينتظرك في نهاية الطريق، تذكر أنك في المشعر الحرام (أرض

---

(١) البقرة: ١٩٨.

الانتباه والشعور)..

***

يالها من دقة!..

عرفات أو رمز المعرفة استعملت بصيغة الجمع (عرفات من عَرَفَ)، لكن المشعر وردت بصيغة المفرد..إنه يريد أن يقول إن الوقائع يمكن صياغتها ووصفها بطرق متنوعة، لكن الحق متفرد يتمثل في طريق وحيد هو طريق الناس وفي سبيل الله..

هذا مايتجلى في مجلسه ﷺ مع أصحابه على الأرض يصور ذلك لهم برسم خط واحد مستقيم وبجواره خطوط متعرجة متعددة على الأرض بعصاه.. يظهر بذلك طرقا عديده للكشف عن وجود العلاقات بين الظواهر (أو طرق المعرفة والتعلم)[1].

إن العلوم والمعارف هي كشف لظواهر موجودة فعلاً، وعرفات أشبه بمرآة تعكس كل الألوان والملامح والأشكال والهياكل بدون تغيير ولكن بحجم مكبر..

الكون الذي نعيش فيه كالمرآة: عندما يواجه الجمادات عندئذ يعكس قوانين الطبيعة (الفيزياء)، وعندما يواجه الدين فإنه يعكس أحكام الفقه.. هذا كل ماهنالك!

ليس هناك معرفة خيرة ومعرفة سيئة؛ فالمعرفة يمكن أن تؤدي الدور ونقيضه دون أن يعني الأمر بالنسبة لها شيء في كلتا الحالتين؛ فهي نافعة إذا أريد منها النفع وهي غادرة إذا أريد منها الغدر.

المعرفة هي المعرفة في كل مكان وزمان، وهي تتساوى عند المسلم وغير المسلم، وهي تتساوى عند المعسكرات المتحاربة وهي تتساوى عند الخدم والسادة فلا تجامل فريق على حساب فريق ولا تختلف عند جهة عنها عند الجهة الأخرى!..

إن الحدود توجد عندما يوجد الشعور فقط، والقوى التي توظف المعرفة هي التي تعطيها

---

(١) نص الحديث: عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيما» وخط عن يمينه وعن شماله ثم قال: «هذه السبل ليس منها إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ الأنعام ١٥٣ رواه جماعة منهم أحمد والنسائي والحاكم وهو صحيح.

وجهتها وتنتهي بها إلى أن تكون أخلاقية أو لا أخلاقية.. في سبيل الحرب أو في سبيل السلام.. في سبيل العدل أو في سبيل الظلم!![1].

في النظام الرأس مالي العلم له نفس المدلول في النظام الشيوعي[2].

الفيزيائيون الفاشيست يعرفون عن الطبيعة كما يعرف ضحاياهم..

والفقهاء الموقرون لدى السلاطين لهم من المعرفة بالدين مثل ماللعلماء الذين يضعهم الحكام في السجون..

إذن.. ماالذي يجعل واحد من الناس (جلاداً)، ويجعل من الآخر (شهيداً)..

وماالذي يجعل من أحدهم (طاغية)، ويجعل من الآخر (عادلاً رحيماً).

وماالذي يجعل من أحدهم (فاسداً)، ويجعل من الآخر (صالحاً)؟!.

ليست المعرفة هي التي تفعل ذلك ولكنه الشعور..

***

إن التساؤل عن أنواع المعارف والعلوم لا يتصل بموضوعنا، أما الشيء المهم لدينا هنا فهو (الشعور)..

إن الحج يفصل ذلك في منتهى الدقة حينما يحدده بـ«الشعور الحرام»..أي الذي تحميه القداسة أو الطهارة أو العفة أو التقوى..

الطور الأول: «عرفات» كلمة واحدة بلا إضافة، لكن الطور الثانى ليس هو المشعر فقط ولكن: «المشعر الحرام».

ومما يثير الدهشة فإن الوقوف بالمشعر الحرام يكون ليلاً، بينما وقفة عرفة تقع أثناء سعات النهار.. لماذا؟!

ذلك لأن عرفه تمثل رحلة المعرفة والعلم التي هي في ذاتها علاقة موضوعية بين التفكير والحقائق الموجودة في العالم، ولهذا فهي في حاجة إلى ضوء النهار.

---

(١) في هذا المعني تحدث باستفاضة الشيخ الشعرواي في كتاب: «في الحكم و السياسة» ص ٥٤، ٥٥.
(٢) قبل أن ينهار.

أما المشعر الحرام فهو يمثل مرحلة «الشعور» وهو بالتالي علاقة ذاتية بين الأفكار، لهذا فهو قوة تكتسب بمزيد من تركيز الفهم في الظلام والهدوء الذي توفره ساعات الليل.

عرفات هي مرحلة التجربة والموضوعية، والمشعر هو مرحلة البصيرة الذاتية..

عرفات هي رحلة ذهنية لا علاقة مباشرة بينها وبين علاج الفساد والأمراض، والمشعر هو مرحلة الشعور المضطلع بالمسؤولية والطهارة والتقوى في الأرض الآمنة المقدسة أرض «المشعر الحرام» كأنك في «المسجد الحرام» وفي «الشهر الحرام» حيث يمنع الرفث والفسوق والفساد والعصيان والحرب والعدوان..؛ حيث لا يسمح لأحد بأن يؤذي حيوانا ولا حتى أن يقتلع نباتاً![1].. هنا الأرض والسماء يسودهما الأمن والسلام في مناخ من الحرية والتواضع ونفوس متشربة التقوى التي تجعل من السلام نتيجة حتمية.

الأرض والسماء هنا طاهرة شفافة كالنور، عظيمة القدر جليلة الهيبة كالطبيعة..

ياللدهشة!..

«الشعور» يولد من «المعرفة»، وهو بدوره يلد «الحب».

فـ«الشعور» هو منزلة بين «العلم» و«الإيمان».. بين «عرفات» و«منى».

إن البصيرة لا تحتاج إلى ضوء النهار، بل تزداد وضوحا بالفكر في هدوء الليل حيث تحل كل مايلتبس عليك من أمر «الحب».

***

الحكمة هي نمط المعرفة أو النظر الذكي، وهو يأتي للإنسان عن طريق الرسل لا عن طريق العلماء والفلاسفة، وهي المعرفة والوعي الذاتي الناطق باسم الإسلام، وليس ماتجده لدى دارس مدرب ولكنه وعي المفكر المسؤول.

إنها ليست العلاقة الباطنية بين الظواهر والقوانين (النواميس)، بل هي نور مبين..

إنها ذلك النوع من المعرفة الذي أشار إليه النبي ﷺ: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

---

(١) ولا حتى أن ينقل حجرا أو ترابا أو جماداً من تربة أرض الحرم!.. (المراجع).

إنها المعرفة التي يهبها المرشد الحقيقي من لدنه..

إن أي شخص يمكنه أن يكتسب معرفة «عرفات»، لكن الإدراك والوعي الذي يمنحه «المشعر» هو النور الذي يقذفه الله في قلب من يشاء!..

من هم أولئك؟!

إنهم ليسوا الذين يعملون بدافع الأنانية، لكنهم الذين يكافحون في سبيل الآخرين:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾(1).

إنها معرفة: «الرشد» و«الإدراك» و«الطاعة» و«الإخلاص»..

وفي ضوء هذه المعرفةأصبح البدوي الأمي قائداً للقبيلة وحاديا لها في طريقها..

هذه المعرفة هي نوع من «الحكمة» لا تكتسب ولا تتعلم في المدارس والجامعات بل يتشربها القلب في ميدان الكفاح وعلى طريق الجهاد، وطلابها ينالونها بالقتال في سبيل الله.. سبيل حرية الإنسان إنهم «المجاهدون»..

إنك لكي تحصل في المشعر على هذه المعرفة فأنت لا تحتاج لضوء النهار فهي معرفة تضيء بذاتها، فطبيعتها نورانية، وبها تستطيع أن تبصر في الظلام.. أي ظلام!!..

تخاف من ظلام المشعر الحرام.. لماذا؟ أليس معك الناس؟ ألست مع القافلة؟ ألست قطرة ذائبة في النهر البشري الأبيض الفياض؟ محلكم علي الصراط المستقيم؟

﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾(2).

كم هو محرك للعواطف أن تبحث عن «السلاح»(1) في أرض الظلمة.. أرض الإحساس والشعور..

لماذا لا تنتظر حتى الصباح؟ من أجل من يكون الجهاد؟..

إن الوقفه في المشعر الحرام من أجل أن تفكر وتخطط وتقوى عزيمتك.. من أجل أن

---

(1) العنكبوت: ٦٩.

(2) البقرة: ١٩٩.

(3) يشير المؤلف إلى جمع حصى الجمرات من أرض المشعر الحرام.

تجمع أسلحتك وتهيء نفسك لميدان القتال..

في ليلة الجهاد يجب أن تقوم بكل ذلك في جنح الظلام ومن كمين خفي تنطلق إلى منى ففيها (دولة الطغيان)..

عليك أن تجمع أسلحتك في ظلمة الليل مستعينا بنور الإحساس والشعور.. الإحساس المقدس الطاهر.. المشعر الحرام، وبالمعرفة التي اكتسبتها في نور عرفات..

عليك أن تنتظر الليل كله.. حتى تشرق الشمس وترى نور الفجر والنصر والحب في منى.

هاهو الجيش العرمرم المزمجر الذي لا يعرف الراحة قد جمع الجمرات من أرض المشعر الصخرية، وهاهو قد وقف على حدود منى والصمت مطبق على المكان، والكل متطلع إلى صحراء الحشر.. هذا الجمع الكبير.. كل القوافل والقبائل اجتمعت هنا.. إنه كيوم الحشر ﴿**يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه**﴾[1].

***

لقد تركت نفسك وسوف تجدها هنا مرة ثانية؛ فحينما كنت في الميقات وأنت تحرم ذبت في محيط الناس.. في الطواف كنت محمولا بهم.. بعد السعي وجدت نفسك في عرفات حيث غرقت في المحيط.. والآن هاقد وجدت نفسك للمرة الثانية في المشعر..

كل إنسان هنا وحده في هذا الجمع..

هنا تكتشف ذاتك بدون أصباغ ولا أقنعة ولا أستار.. عارٍ كما خلقت أول مرة.. الليلة ستدخل في حديث ومناجاة مع الله تعالى.

أسفر عن نفسك.. اعترف بذنوبك.. لا تزيف عاطفتك وأفصح بوضوح عما تريد فقد حانت اللحظة التي تطلق فيها مااحتبسته في جوفك كل هذه السنين وتكسر كل الحواجز وتتجاهل كل الحدود!..

إنك هنا وحدك وقد انضممت إلى المجموع، ومع المجموع انتهى بك الأمر أن تكون

---

(١) عبس: ٣٤- ٣٦.

فرداً مرة ثانية.. الفردية التي ولّدتها من الغوص في المحيط البشري حتى تعثر على جوهرة نفسك هي فردية رائعة إنك مع الناس تتزاحمون وفي ذات الوقت أنت وحدك!

ياللروعة!

كن مع الناس ولا تكن معهم..

ياألله إني قصدت أرض المشعر الحرام! لا أجد خياما ولا بيوتا ولا أبوابا ولا شوارع ولا أبراجا ولا معلما.. إنها ليست مدينة!..

لا تضيع وقتك في البحث عن الأصدقاء أو عن القافلة.. فهنا كل منكم وحده.. هنا يبقى اثنان منكم معا: أنت والليل!

إنك تشعر بالوحدة ضمن هذه الفردية المطلقة للبشر المسؤولين، ولا أحد يعرف الآخر، لكن لا تخف فالليل يغطيك مطهره..

لا أحد ينظر إليك، ولا أحد ينادي عليك بما تعودت أن تنادى به من قبل. حرر نفسك وأتركها على أيادي الليل: ماذا تراني أقول؟!..

لقد غطى ليل المشعر الحرام الآفاق وبدا كأنه شاشة من السماء..

في هذا السكون غابة من النخيل يغمرها ضوء القمر..

دع عينيك تبحثان، وقلبك الذي لا يعرف الراحة تحت وابل بحثهما يخفق ويرفرف كالفراش الولهان، ثم استشعر من عمق قلبك معنى أن تكون وحيداً في عمق هذه الصحراء الموحشة التي حكم عليك بالعيش فيها[1].

في عمق هذا الصمت الجليل يمكن أن تصغى إلى الله وتستمع إلى صوت أعظم مسجوني الأرض، وإمام الإنسانية الذي كان ينحني برأسه إلى بئر يبكي ويجأر بألم وحرقة في قلب هذه الصحارى[2].

في هذا الليل الغامض المهيب الأخاذ كل شيء يبدو هادئا في أرض المشعر.. وفجأة

---

(١) يشير المؤلف إلى السيدة هاجر.

(٢) يشير إلى الإمام علي كرم الله وجهه الذي كان يذهب إلى مقابر البقيع وينحني على بئر ويبكي (عن الترجمة الإنجليزية).

يبدأ الطوفان الغازي المتدفق- من جند الإسلام- على الوادي فترتوى أرض المشعر والجبال المجاورة ثم يعود السكون مرة أخرى تحت سقفه السماوي..

***

جاء الليل إلى المشعر ولا أثر لضوء بعد.. هناك ضوء القمر، والنجوم المشعة ترسل أشعتها كأنها الرذاذ: تبرق وتضيء بخفوت في الصحراء.

إن ليل المشعر بسمائه العلوي لهو شيء مجهول للذين عاشوا حياة المدينة وأفسدوا حياتهم بالبحث عن أعراض الدنيا وأطماعها..

إن ليالهم لجد مختلفة!

ليل المشعر الحرام هو ظلال الهجرة والجنة: نور القمر بارد وواضح مع ابتسامة حانية الله.

﴿والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء ومابناها والأرض وماطحاها﴾[1].

إنه ليس كليالي المدن المليئة بالزحام والفسق.. حيث يستنشق الناس هواءاً ملوثاً منتناً، وحيث النجوم تبدو شاحبة مريضة.

إنها ليلة العاشر من ذي الحجة..

هاهو جيش التوحيد العرمرم وقد ضرب رجاله المجاهدون خيامهم فوق هذا الجبل.. هؤلاء الجنود المقاتلون في سبيل الحرية قد خرجوا تماما عن هذا العالم الأرضي وتولهت خواطرهم بالحب ناظرين إلى سماء المشعر..

المحيط الأزرق متقلب مليء بالبللورات السماوية (النجوم) التي تظهر تباعا في ذلك السقف القاتم وتفتح بابا إلى عالم آخر كأنها ابتسامة الطبيعة اليتيمة تلاطف أهل هذا العالم الأرضي التعس.

القمر يشع مشرقاً من قمة الجبل ويضيء وادي المشعر..

---

(١) الشمس: ١- ٦.

في الركن الآخر من السماء النجوم منهمكة في التعلق ببريق الثريا على أرض المشعر حتى تضيء الطريق الغامض الذي يتوجه تلقاء الأبدية.. هذا الطريق هو الذي يسمي الطريق الأبيض أو «الطريق إلى مكة» أو «طريق على»[1].

***

كل هذه المعاني الجليلة الهامة اختفت من أفهام الأميين الذين يضحك عليهم علماء الدين الذين مازالوا في مرحلة «المعرفة».

إن حقائق هذه المناسك لهي أعظم وأعمق من التاريخ، إلا أن هذه الحقائق يتم تجاهلها لأنها غير ملموسة!

هؤلاء المؤرخون الذين يستوعبون ويسجلون الأحداث «الملموسة» لا يعلمون أنهم غضوا الطرف عن هذه الحقائق، كما لا يعلمون أنهم أضاعوا حياتهم وهم يسجلون حكايات فارغة وسمجة ومزيفة بصورة بغيضة لا لشيء إلا لأنها قد وقعت وهذا هو الهدف..

انظر إلى سماء المشعر!!.. انظر إلى إشعاع النجوم وهي تخترق قلب الليل.. إنها ملائكة الأمن في السماء.. كلما حاول الشياطين والمفسدون أن يسترقوا السمع ويتجسسوا في الخفاء من زاوية في الظلام سيصعقون بشهاب رصدا.. لماذا؟! حتى لا يتسنى لشرير أو لغريب أن يتجرأ على انتهاك خصوصيتها المقدسة الجليلة.. لماذا؟! حتى لا يتسنى لشرير أو لغريب أن يعرف سر تألقها..

أنت أيها المنهمك في الزحام، المتفرد في خصوصيتك مع الله!.. أيها الجندي المحب العابد في ليل المشعر.. الأسد في ميدان مني.. المقاتل في جيش الجهاد.. انتظر في مرحلة الشعور لتقاتل الشيطان في اليوم التالي.

ماذا أعددت؟ ارتد كفنك، واحمل حجارتك(أسلحتك) بكلتا يديك.. لا شيء غير ذلك! ضع يديك تحت رأسك واقض ليلتك في نجوى مع الله.. وحدكما.. معك سلاحك

---

(١) هذه الأسماء هي أسماء مستعارة في اللغة الفارسية، وسمى طريق علي لأنه يقال إن الإمام علي كرم الله وجهه سلكه إلى مكة (عن الترجمة الإنجليزية).

وإيمانك.. دع هذا العالم السفلي وتجاهل هذه الحدود.. حلق فوق هذه السماوات العلى واعبر خلال أبواب النجوم ولتعرج حيث عرج النبي محمد ﷺ إذ كنت من الذين يتبعونه بإحسان[1] وليشتغل قلبك بالعشق.. اقتل كل ضعف وخوف وعقد ورغبات كانت لك في حياتك، ولتتهيأ ليوم غدٍ بالاستعداد الليلة..

أيها المخلوق الحر والجندي المحب الأشرار ينتظرون في منى.. وطن نفسك هذه الليلة على يوم قتال ضار غداً.. في أرض الوعي والشعور املأ يديك بالسلاح واملأ قلبك بالعشق.

* * *

قد تسأل نفسك: ماالذي يفترض على أن أراه أو أفعله هنا؟

الإجابة : لا شيء! إنك حر في أن تغطس في المحيط البشري.. بإمكانك أن تقضي الليل كما تشاء... حتي لو نمت فهذا لك! لكن فلتنصرف وأنت في قرارة نفسك تعلم أنك في أرض المشعر الحرام حيث لا شيء تراه؛ فكما اتفقنا من قبل: (ينبغي أن تكون العظمة في نظرتك لا فيما تراه).. لا جبر هنا.

إن الذي يفترض أن تفعله يسمو على أن يكون واجبا بسيطا إنه: التأمل..

* * *

ياللروعة!!

مئات الآلاف من الأشخاص بلا أسماء ولاهوية شخصية، يجلسون على الأرض، يتأملون سماء المشعر المرصع بالنجوم..

هنا ستروى ظمأك بأمطار الإلهام الخفي الذي يتساقط من السماء..

في عمق هذا الزحام تصغى إلى الصمت!

في عمق هذا المناخ المقدس لا شيء يشغل عقلك ابتداءاً.. كلا ولا حتى ذكر الله!! لأن الله يتجلى في كل ماحولك يمكنك أن تستنشق عبيره كما تستنشق عبير الزهرة،

---

(١) يقصد الإسراء والمعراج، وهنا المعراج.

وتستشعر حضوره بكل حواسك: في عينيك وفي أذنيك وفي قلبك وفي نخاع عظامك..

ماالذي قيل؟!

إنك لتستشعره في جلدك فهو الشغل الشاغل والحب الأبدي.

***

اقض الليل في المشعر تتأمل عساك تبلغ اكتشاف نفسك.

في ظلمة الليل حاول أن تعثر على أسلحتك استعداداً ليوم غد..

ياله من منظر بديع! وصل الجيش لتوه من عرفات ثم انطلق مسرعاً يصعد الجبال ليجمع أسلحته.. إنه جيش التوحيد..

لم تبق إلا مرتبة واحدة هي الصلة المباشرة بالله وليس بأحد غيره..

إن الألقاب والرتب تمنح هنا على أساس ذاتي: الذات اليوم، والذات أمس، والذات في أي وقت.. وليس على أساس أسماء الأعلام أو أساس اختياري شخصي..

أخيراً: إن إبراهيم هو قائد هذا الجيش التوحيدي.

***

على سفوح الجبال وفي ظلمة الليل اجمعوا أسلحتكم مجتمعين على أن يحمل كل منكم في قلبه أنه مسؤول عن نفسه.

المرحلة القادمة هي منى «ميدان المعركة» التي ستقع غداً.. إنه يوم الفداء في زمان الجهاد.

أسلحتك يجب أن تعدها وتستجمعها في ظلمة الليل إلا أن القتال يدور في رابعة النهار.

إن هذا المحيط البشري يبدو هائجاً لا يعرف طعم الراحة.. إنهم يتفكرون ويهيئون أنفسهم للجهاد.

آلاف الأشباح الغامضة: كلهم إخوانك وأخواتك جنود هذا المحيط البشري، كل منكم يعرف أخاه حق المعرفة إلا أنه لا يستطيع أن يميز أخاه أو أخته. كلهم ذات الشيء.

في ظلمة المشعر الحرام كل واحد يعمل في جد واجتهاد منحنيا على الأرض الصخرية يبحث عن «الجمرات» التي ترمى في ميدان المعركة بمنى.

الجمرة: هي حصاة من نوع خاص.. لهذا لابد أن تكون حذراً! الظلام يحيط بك ويصعب الحصول على الحصى.

في كل واحدة حاول الحصول علي الحجم السليم.

يجب عليك اتباع المواصفات وأنت تختار.. المسألة مضبوطة، اتحد مع الناس واجلس إلى قربهم واستشعر مسؤوليتك كاملة.. إن الأمر جد.

الجمرات سوف تستخدم كأسلحة في قتل عدوك.

اختر منها ماتجده أملساً ولامعاً ومستديراً ومايكون أصغر من حبة البندق وأكبر من حبة الفستق..

إلى ماذا ترمز هذه الجمرة؟

إنها تمثل الرصاصة.

***

كل شيء يعمل ويقوّم بحذر..

كل جندي في جيش إبراهيم عليه أن يطلق سبعين رصاصة على العدو في منى..

ينبغي أن ترمي في رأس العدو وجسده وقلبه..

إذا لم تكن خبيراً فاختر لك رصاص أكثر لتعوض ضعف مهارتك..

مهما يكن الأمر يجب أن تكون عدتك كاملة لخط المواجهة.

إذا أطلقت عدداً أقل من الرصاص ولو بواحدة انتقصت جنديتك، وانتقص حجك.

***

في هذا الجيش تعوّد على احترام الأوامر، وتذكر أنك يجب أن تبقى في منى ثلاثة أيام: العاشر والحادي عشر والثاني عشر.

تأكد أنك لم تفقد طلقاتك؛ لأنها وسيلتك الوحيدة التي تعتمد عليها في مقاومة العدو.

كلها تصرفات عسكرية..

الوقائع والأفعال في أهمية النتائج التي تهدف إليها: إن المنظر هو ميدان قتال وليس دير عبادة!.. الأوامر بسيطة ودقيقة ومضبوطة وقاطعة ولا يمكن تجنبها ولا تحتاج إلى تفسير نظري وفلسفي.

هذه أفعال لا صلة لها بدعاء ولا بشفاعة ولا بتبتل ولا بابتهال..

إنها تصرفات ظاهرة المغزى والنتائج.

***

الطاعة المطلقة التي لا يشوبها أي التباس تميز هذا الفصل.

لا شيء، ولا أحد يمكن أن يحل محل الآخر في هذه اللحظات.

لن تقبل أعذار من أحد..

تذكر أن هذه الجبال لا سلطان لأحدعليها.. حتى إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام إذا رموا طلقات أقل من العدد المطلوب فإن حجهما سيظل ناقصا!

ماالذي يشير إليه ذلك؟

إذا اقترفت خطأ ستعاقب.. هنا لا مكان للتفاهم أو الرشوة.

***

في اليوم الأول ستهاجم مرة واحدة وسترمي سبع رصاصات..

سيكون مجموع ماترميه تسعا وأربعين أثناء هذه الأيام الثلاثة.

في اليوم الرابع لك الخيار في أن تبقى في منى أو مغادرتها..

إذا بقيت عليك أن تواصل الهجوم وتتصرف بنفس أسلوب اليوم الثاني والثالث؛ وفي هذه الحالة ستحتاج– على الأقل– إلى سبعين رصاصة..

منى هي جبهة القتال فلا راحة لأحد فيها.. إذا بقيت فلابد أن تقاتل.

بمجرد أن يستجمع كل جندي أسلحته يتبدل المناخ العسكري فجأة ويعبق الجو مناخ روحي.

لا مزيد للحديث عن السلاح والقتال والانضباط والطاعة والانقياد.. بدلا عن ذلك فإن كل حديث يدور سيكون عن السلام والحب والتسامي بالروح إلى السماء.

إن زئير الأسود المنتفضة قد استحال أنينا مكتوما مبعثه الشوق وانكسار المعصية (كما كان يعقوب عليه السلام جزعا حتي الموت لفراق يوسف) أصوات الرصاص المتراشق حل محله سكون تسمع معه همس الناس ومعراجهم نحو السماء ومناجاتهم مع الله وقد انتصف الليل.

***

ياله من منظر رائع!

لقد شهد ليل المشعر في بدايته صيحات جيش مهيب جبار ينسج خيوط خطة هجوم كاسحة سيفجرها في الغد!.. ثم ماذا؟!

إن البحر الصافي الخالي من الأمواج.. المنبسط تحت نور القمر وضوء النجوم التي ترسل عليها وابل من سكب شعاعها فينعكس كل ذلك سماء تتبدى في هذه الأرض.. إنها أرض ملائكة الرحمة والجمال.

كل شخص يستشعر دهشة في أعماقه وهو صامت.. يبدون كأن على رؤوسهم الطير.

إن الإنسان ليسمع صوت الدمع وهو يتقطر على الأرض من هؤلاء الباكين الأطهار..

لا صوت يجرؤ على كسر الصمت في ليل المشعر إلا صوت خفقان القلوب النابضة بالحب..

***

المشعر الحرام هو معسكر لجيش عالمي.. كل جندي فيه هو قائد أيضا.

إنهم لا يشربون [1].. إنما يتمتعون ويتسلون فقط بالإعداد للقتال في اليوم التالي؛ بل ويحتفلون بانتصارهم مسبقاً في ليلة العيد! وكلهم مستغرق في الحب والتواضع والصمت.

إنهم يواجهون المستقبل وقد استخف بهم الرجاء والطمع والتطلع إلى جبهة الخلود، ليرووا ظمأهم بوابل الإلهام، ولتصفوا روحهم بالعبادة، ولتثبت نفوسهم بالدعاء.

لماذا كل هذا؟!

لأن يوم غد سيكون يوم قتال ضار، لعلهم ينالون شرف الشهادة (وسام الشهادة) من يد القائد الأعلى.. الله سبحانه.

***

ياللغرابة!!

جنود المشعر الحرام ينتظرون يوم القتال الذي يزحف مقتربا منهم رويدا رويدا، وقد ملأوا أيديهم بالسلاح.. وشفاههم بالدعاء.

لقد تنفست نسائم الفجر وبدت في حركة غامضة داخل المعسكر متزامنة مع صوت الأذان المتناغم الذي غطى كل ناحية.. الصدى يبث الأذان في كل مكان.. كأنما يصل إلى الأفق البعيد.

مئات الآلاف من الكائنات تنحني وتسجد في غلس الفجر، وعبير الأذان ينساب في هدوء عبر أرض التوحيد حيث لا شيء يعكر صفو الوحدانية الجليلة...

لقد جاء أوان صلاة الصبح التي تؤديها أول كل يوم ، لكن هذه المرة هناك فرق ..

إنه المناخ الذي تؤديها فيه.

الصمت يطبق علي المشعر كأنما الجميع نيام.

لقد مر الليل عبر الجبال وتسرب عبر هؤلاء الذين ناموا في ليل المشعر الحرام، ثم اختفوا فهم في طريقهم إلى منى..

---

(١) في معظم الجيوش وفي الأعياد يشرب الجنود والناس الخمر بأنواعها وهو يشير إلى ذلك.

والآن أشرقت الشمس.

***

منى

عند منى تقف «الوقفة» الأخيرة الطويلة..

منى هي رمز الأمل والمثال.. والحب.

الحب هو الفصل الخاتم الذي يجيء عقب المعرفة والوعي.

لم يستطع دانتي في استلهامه للغنوصية الشرقية[1] في كتابه «الكوميديا الإلهية» أن يتعرف إلا على مرحلتين: * الحكمة (فيرجل). * والحب (باتريس)

لكن أثناء الدراما الإلهية للحج تتواجد ثلاثة فصول هي:

* المعرفة. * الوعي. * الحب.

لقد حانت ساعة الجمع العظمى في اليوم العاشر، حيث يقع عليه الغداء.

ضوء شمس المصباح المنبعثة للشروق يوقظ الناس من سباتهم وهاهم يتجمعون فوجا إثر فوج رويداً رويداً من كل اتجاه مكونين هذا النهر البشري العظيم.

لقد انتظم الآن الجيش القوي وتهيأ لمغادرة المشعر الحرام إلى الوقوف التالي بمنى.

لقد استنفذ جيش التوحيد وقتا طويلاً في جمع أسلحته، ويناجي الله وينتظر شروق الشمس[2] بفارغ الصبر:

﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[3].

الجيش يتجه الآن ناحية الغرب حيث «منى» أرض «الله» وموقع «الشيطان»، ولم تدع ابتسامة شمس العيد لأحد من راحة..

الجنود يرمون الآن عبر الشريط الضيق الذي يحمل اسم «محسر»..

---

(١) الغنوصية هي منهاج المسيحيين الأوائل الذين اتخذوا طريق القلب والعبادة في معراجهم إلى الله بدلاً من طريق العقل الذي كان منهج الفلاسفة.

(٢) لا يستطيع أحد مغادرة المشعر الحرام قبل مشرق الشمس حيث يبدأ الهجوم عند حدود منى.

(٣) الفتح: ٢٩.

شـريط ضيق يجـعل الصف أكـثـر تماسكا، والشـمس تقوم بدور القـائد الأعلى وتأمـر الجند:

محلك سر.. هجوم.. خطوة معتادة.. خطوة سريعة!

أولئك الذين كـانوا في حالة تـأمل وسكون بالمشعـر يتـحولون- فـجأة- إلي حـالة من الحركة والقلق وهم يندفعون نحو «منى».

ثم- فجأة وبلا مـقدمات- يتوقف الجيش كله كـأنما انتصب أمامهم سد منيع يسـتعصى على الاختراق.. لقد تراجع الجيش وكأنه لا يستطيع أن يخطو أمامه خطوة للأمام.

هناك فقط على مشـارف النهاية في الزحام قليل من الحركـة.. ماذا حدث؟! منذ الذي يستطيع أن يصدر هذا الأمر بالتوقف؟!

إنه مشرق الشمس!!.. الشمس هي القائد.

***

الآن يقف الجيش على جبهة «منى»..

الملايين من جنود الحزبة الذين يرفضون الخضوع لأي قوة سوي الله يتزاحمون في هذه الصفوف الطويلة..

هنا يوجد الخط المفـترض الذي لا يجرؤ أحـد على تجاوزه خطوة واحدة.. إنه الحـاجز الخفي الذي يفصل المشعر عن منى.

لا أحـد ولا قـوة تسـتطيع أن تخـترق جـدار الأمن ولـو كان إبـراهيم عليـه السـلام أو محمد ﷺ.

هذا الضابط ليـس فريضة ولا واجب ولكنه «سنة»، وهو ذات الدرجـة التي وضع الله تعالى مرتبتها لحكم نظام الكون كله:

﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾[1].

***

(١) فاطر : ٤٣.

كما تسري القوة الطبيعية لقانون الجاذبية، وكما ترى الموت والحياة حقيقة واقعة.. كذلك فإن الشمس هنا هي «القائد»..

دعها تشرق فأشعتها سوف تحرق الجدار وتفتح الطريق للجيش حتى يعبر في بساطة مثلما يأتي الضوء على الظل فيمحوه!..

الجدار المنيع الذي أوقف الجيش سيتحطم بعد قليل حينما تشرق ابتسامة الفجر..

خلف الحاجز الخفي ينتظر الجيش وهو يتململ بعدته وذخيرته.. ينتظر الليل كله حتى تشرق الشمس مصدرة الأمر بالعبور.

***

انسلخ الليل وانتشرت أشعة الضوء مالئة المكان، لكن ماتزال هناك بضع لحظات حتى تظهر الشمس جلية في الشرق.

لا يوجد في أي مكان على وجه الأرض وفي أي وقت من الأوقات وعبر أي مجتمع من المجتمعات مالمشرق الشمس مثل مالدينا هنا من سلطان!.

في حالة من الصمت الرهيب المهيب المثير ملايين الأفئدة والعيون والأبدان تشرئب بأعناقها منتظرة صدور الأمر (لترى مشرق الشمس).. إن البعض من شدة قلقه واندفاعه ليسمع الأمر قبل صدوره!.. لماذا؟!

إنه أمر يصدر للجيش الذي يرمز لسلطان التوحيد في الأرض.

هنا تجد الجيش الوحيد عبر التاريخ الذي يأتمر بأمر الشمس، والأمة والوحيدة التي رضيت بأن تحكم بتوقيت الشمس وبالفجر.

هناك بعرفات أشرقت الشمس وصعدت أعلى الجبال وأطلت من خلفها.. سبق للفجر أن حطم بناء شيطان الظلام الهش:

﴿**من شر غاسق إذا وقب**﴾(1).

وتدافعت أمام فجر العيد دماء كل الذين استشهدوا بأيدي الطغاة.. في هذا المكان

---

(1) الناس: ٣.

المشمس تأمر جيش التوحيد بالثأر والهجوم على جذور الطغيان الثلاثة[٢] الضاربة في عمق التاريخ.

***

يالها من لحظة رائعة!

الشمس ترسل ضياءها، والشفق يعبر بأشعته النافذة، والصبح تنفست نسائمه.. كل ذلك يجعل كل إنسان يهتز بلا راحة.

إنها «آيات الله المقدسة» التي تجسد السعادة والأمل والإيمان.. تتجلى وتعطي أمرها بالقتال والاستمساك بقوة النصر.. إنها تأمرك بتحطيم الأصنام

اليوم لن تبقى لأكبر قواعد الشيطان في الأرض بقية..

واليوم سيقتل الشرك، وسيعلو التوحيد ويحلق ناشراً لواءه المضيء معلنا عن جوهره الحق.

***

فجأة أسفر ضوء الشمس عن الصراط المستقيم وأصدر الأمر للجنود بالعبور..

هاهي صيحات البهجة تتعالى وأشعة الشمس وأطياف الجند تتحد وتتدفق عبر مضيق منى..

لم يعد الجمع المتزاحم يتألف من «حمامات السلام البيضاء»، ولكن تبدل ليكون «صقور الحرية المسلمين»، ولهذا فلابد للأوامر أن تطاع ولابد للنظام أن يسرى:

اقض الليل بالمشعر الحرام

ادخل في اليوم العاشر إلى منى

***

---

(٢) في الفصل التالي يرد شرح وافي لمعنى رموز الطغيان الثلاثة، وكذا فصل: «الأصنام الثلاثة رموز التثليث».

في الفجر يجب أن تكون على مشارف منى لتعبر تلك الحدود وتنضم للجمع وتشاهد شمس اليوم العاشر.

منى تقع باتجاه الغرب بينما عرفات تقوم إلى الشرق، والجيش يقف قبالة منى والشمس تشرف من خلف الجند وتعبر جبال عرفات وتدخل إلي مضيق منى؛ لهذا فالشمس أيضا تؤدي مناسك الحج: تشرق في عرفات.. تعبر المشعر الحرام.. ثم تدخل منى!!

جيش الحب مستعد للجهاد، ومقاتلوا الحرية الذين جاءوا من عرفات وأمضوا الليل في المشعر الحرام يجمعون أسلحتهم ويزدادون إيمانا ويلتزمون بالواجب منتظرين على أبواب منى.. أين؟! على حدود المدينة.. إنها مركز الاستشهاد. وفي ذات الوقت ميدان المعركة.

انتظر الشمس.. وأطعها!.. كيف؟!

أعد نفسك: * اجمع أسلحتك في الليل

* لا تدخل منى قبل مشرق الشمس.

إذ أن الليل هو الوقت الذي جعل للوقوف عند المشعر الحرام.

* لا تبقى في المشعر الحرام بعد مشرق الشمس لأن النهار هو وقت العمل الموقوت في منى.

* ابدأ هجومك مع مشرق الشمس.

مشرق أي شمس؟.. شمس اليوم العاشر من ذي الحجة.. شمس العيد.

ياألله!.. إنها المسافة بين حدود منى حتى قاعدة الشيطان.. ميدان المعركة عند مدخل منى..

مهما يكن من أمر فإن الاحتفال بالعيد يأتي – بالطبع – بعد أن تهزم الأشرار وترمي عليهم الجمرات وتنال النصر.

لكن.. انظر إلى أمة التوحيد وتقاليدها: إنها تحتفل بالعيد قبل أن تبدأ المعركة هذا يعني أنك منتصر بمجرد أن تتخذ قرارك[1]..

---

(١) الغريب أن الدكتور هشام شرابي وهو مفكر وضعي يقول: (إن التحرير عملية تبدأ في اللحظة التي يبدأ فيها الصراع وليس مجرد هدف نصل إليه عندما ينتهي، فالانتصار هو الانتصار الذي يتحقق ==

هذا يعني أنك كسبت المعركة منذ أن دخلت حدود منى..

[ماذا؟.. ماالذي يقال؟ .. ياإلهي! ماأصعب أن تفهم هذه الأمة البسيطة.. ماأعقد هؤلاء البشر الذين لا يأبهون بشيء ويمضون في سهولة ويسر!]

هذا يعني أنك منتصر إن كان هذا هو الوقت!.. أي وقت؟!

إذا كنت قادماً من عرفات..

إذا كنت موجودا بالمشعر الحرام متفكراً.. تجمع أسلحتك لفجر العيد.

***

كلا! كلا!..

إن أهم الشروط لم يفصح عنها بعد..

إن الحج يمثل طبيعة الإسلام وصورته الصادقة، ليس الإسلام في «كلمات» ولكنه الإسلام في «حركة» إنه : رمز.

كلما توغلت في البحر صرت أبعد عن البر كذلك مقدار ماتطيق من الفهم والعلم، وكل شخص يدعى أنه استوعب الإسلام كله لم يفهم منه شيء إن الشروط الأهم لم ترد بعد..إذا جئت إلى الميقات، وارتديت ثياب الإحرام..

ماالذي قيل؟.. من أنت؟.. من أنا؟

إن الفرد وحده لايستطيع أن يقوم بشيء..

القرآن الكريم يتحدث عن «الناس» لا عن الفرد.

الناس!.. يالها من كلمة جميلة تلك التي جاءت بالقرآن.. إنها دائما بصيغة الجمع؛ اذا لا مفرد لها..

= قبل أن يصل الصراع إلى منتهاه وتتحقق أهدافه، وكل حركة تحرير تفشل حتى لو انتصرت إن لم تحقق الانتصار السابق الذي يكون هو شرط انتصارها الأخير.. هذا هو معنى التحرير الحقيقي والثورة الحقيقية).

راجع البنية البطريركية–دار الطليعة–ص ١٠، ١١ الطبعة الأولى.

«يد الله مع الجماعة»

إن كل مايصوره الله سبحانه وتعالى في هذا العالم من حركة وسكون وإحكام ونصرو.. كلها مكتوبة ومرتبطة بأقدار الناس.

إن سنة الله التي لن تجد لها تبديلا هي قوانين تحكم حركة الجماعات والمجتمعات عموما،وأقدار التاريخ تسير باتجاه تحقيق سنن الله هذه، والذي نستطيع أن نفعله «أنا» و«أنت» هو أن نكتشف هذه السنن ثم نسير وفقا لها لتحقيق أقدار الله في التاريخ...

وإرادة الله تعالى في الزمن المحدد لها هي محصلة حياة الإنسان ونهاية الثورة الدائمة من أجل سلام الكون.

ألم يقل الله– رب إبراهيم وخالق الإنسان – في القرآن الكريم:

﴿.. أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾(١).

وهو الذي وعد بـ

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾(٢).

إن «الاستضعاف» يشمل كل مامن شأنه أن يضعف أو يعادي الإنسانية، وهو الذي يحطم طاقات الإنسان المادية والمعنوية، وهذه الكلمة هي الكلمة الجامعة لكل وسيلة يسخرها عداء الإنسانية: استعمار.. استبداد.. استعباد.. استحمار.. استغلال.. أو أي مصطلح يمكن أن يطرأ في المستقبل!..

دعهم يقولون مايحلولهم فقد سبق وعد الله أنه سبحانه سينجي ضحايا القهر ويحررهم، بل إنه سبحانه أعطاهم امتياز قيادة المجتمع البشري في المستقبل.. نعم !هذه الطبقة من البشر – المحرومة من حقوقها دائما– سوف ترث قصور الحكام وثروات الأموال وكنوز العلم!

ياترى ماعلاقة كلمة «المستضعفين» **﴿الذين استضعفوا في الأرض﴾** وبين كلمة

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.
(٢) القصص: ٥.

«معذبوا الأرض» التي اختارها «فرانز فانون»[1] عنوانا لكتاب له مشهور؟

يقول في الكتاب: (في يوم العدل سيقوم عمال الله بالتفريق بين نوعين من الناس:

* الذين استُغِلُّوا، وهؤلاء سيدخلون الجنة.

* والذين استَغَلُّوا.. وهؤلاء سيدخلون جهنم)[2].

وحتى في الدنيا يتفق المؤمنون وأتباع المذاهب الشيطانية على تقسيم الناس قسمين:

* الذين سيدخلون الجنة. * والذين سيعذبون.

وكذلك قال «جان بول سارتر» في إحدى افتتاحيات كتبه: (من مجموع سكان الكرة الأرضية البالغ بليونين يؤمن الاستعماريون أن خمسمائة مليون فقط يمثلون الإنسانية، بينما يعتبرون البليون والنصف الباقية مجرد رعايا أو مجموعة لا امتيازات لها تشكل مايسمى بـ: العالم الثالث).

إذا كان مصير التاريخ وقدر الله قد قرر أن النصر سوف يكون حليف «المستضعفين» أولئك الذين «لا حول لهم ولا قوة» من سلالة هابيل..

وإذا كانت سنن الله لن تتبدل وهي التي تحكم مصير التاريخ **﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا﴾**.

ماذا يفترض أن تكون عليه أنت؟.

إن شأنك شأن كل مظاهر خلق الله.. عليك أن تكتشف هذه السنن وتختار قدرك!، فكما أن للطبيعة التي حولك مآل ومصير، وللتاريخ مآل ومصير، فإن لك أنت أيضا مآل ومصير.

---

(١) فرانز فانون: طبيب أمراض عقلية من جزر المارتنيك، عمل مديراً لمستشفى «بليدة» بالجزائر من قبل الإدارة الاستعمارية الفرنسية، ثم استقال من عمله وانضم لصفوف الثورة الجزائرية مقاتلاً ومنظراً للثورة في أفريقيا عامة وفي الجزائر خاصة حتى قضى نحبه.. راجع كتاب «فرانز فانون ودوره في الثورة الجزائرية» للأستاذ محمد الميلي.

(2) Les Damnes terre. By Frantz Fanon

أنت نزيل في أربعة سجون تحتويك: سجن الطبيعة (الدنيا)[1] ..وسجن التاريخ.. سجن المجتمع..وسجن ذاتك.

بالعلم تستطيع أن تعرف مصير الطبيعة (الدنيا) إذا تعلمت علومها، وبالرضا والقناعة تحرر نفسك من سجنها.

وبالعلم يمكن أن تكتشف التاريخ (بدراسة فلسفة التاريخ ووقائعة) وبالرضا والقناعة تغير تاريخك.

بالعلم عليك أن تكتشف مجتمعك (بدراسة علم الاجتماع) وتتعرف على قوانينه أعرافه وعاداته وبذلك يتم لك تحرير نفسك.

لتتجاوز هذه السجون الثلاثة فأنت تحتاج «للمعرفة»..

لكن ماذا عن السجن الرابع؟ سجن الغرائز البشرية؟!

إنه السجن الوحيد الذي تحمله داخلك.

إن العلوم لتعجز عن تحريرك من هذا السجن؛ إذ أنه قابع داخلك رابض في ثنايا جسدك كامن في نفسك «العارفة»..

إنه يتطلب «معرفة» خاصة حتى تقوم بتقديم نفسك إلى ذاتك! ، وحتى تساعد «نفسك» على اكتشاف «ذاتك».

إنك في حاجة إلى قوة تعينك على الانتصار على ضعفك.. أن تتمرد ضد ذاتك إنك تحتاج إلي يد قوية تساعدك وتغيرك.

المعرفة هنا- في هذا السجن الرابع- لا تصلح علاجا، لأنها هي نفسها سجينة داخل «العارف»!

هناك أنماط أخرى من المعرفة حمل مشاعلها الأنبياء هي: الحكمة، والوعي، والإيمان.

إنها أنماط المعرفةالتي تضيء لك الطريق وتيسر لك السبيل لاكتشاف نفسك، وتُعرّف السجين الذي يقوم في داخلك..

---

(١) يقول صلى الله عليه وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

القوة التي ستحررك من داخلك– من عبادة الذات– ليست هي العلوم المسخرة، وإنما هي فن الحب والتراحم..

إن الحب والتراحم هو الذي يمكنك من تقديم حياتك شهيداً إذا كنت تشعر أنها سجنك بل وتضحى بإسماعيلك بيديك– وهو فعل يتجاوز ويفوق الشهادة– إذا كنت تشعر أنه يقف في طريقك.

إذن يمكننا أن نستخلص: أنك تستطيع أن تحرر نفسك من السجون الأربعة بـ«الحب والتراحم»؛ فهي تلك المعرفة التي تزودك بدرجة من الوعي والإبداع تجعلك تبني نفسك لتبلغ بها أمر الله؛ وحتى لا تكون مجرد عبد للدنيا.

الإنسان هو ذلك المخلوق الذي هبط إلى الأرض وحيداً..

أنت إذن ظاهرة حية وعليك أن تبني طبيعتك الخاصة بك.

إنك «الصفر»أو «اللاشيء» الذي يستطيع أن يصبح «كل شيء»..

إنك «شك» أو «ممكن» يلبس شكل إنسان!..

إذا اخترت أن تكون إنسانا فعليك أن تكتشف فطرتك «الإيمان»، وبه تستطيع أن تحرر نفسك، وأن تجد أقدار الله في التاريخ، وأن تدرك أن التاريخ هو قدر الإنسان عبر الدهور كما تدرك أنه– وبذات الدرجة– رحلتك من الصفر إلى الله تعالى، ومن «الواحد» لـ: «اللاشيء» تبدأ معرفتك بالإنسان وقيمه، وبذلك تعتنق الإنسانية ذلك النهر اللانهائي ذو التيار الخالد.

إن سيادة الليل في «المشعر الحرام»، وطغيان الأصنام الثلاثة في «منى» لن يستطيعا أن يغيرا أوأن ينحرفا بالمسار المتقدم لهذا القدر.. إنه قدر الله.

تفاصيل قدرك سيكتبها الآخرون إذا كنت «لا تعرف»، وتكتبها أنت إذا كنت «تعرف».. وأنت أيها «الصفر» الذي صرت «واعيا» و«حراً» إذا جئت إلى الميقات في الزمن المحدد وأدركت طريقك الطبيعي واتبعته– قدر آدم عليه السلام – فسوف تكون عندئذ على الطريق القويم وعلى الصراط المستقيم.

أنت تذهب من بيتك إلى الكعبة..

أو من الطين إلى الله..الكون خاضع لسلطان الله ومشيئته، ومحكوم بقدره وعلمه، وأنت واقف على شاطيء هذا «النهر» ولك الخيار أن تقرر البقاء علي الضفة لتموت أو تدخل إلى نهر الناس لتتحرك.

ألا يمكن أن تدرك ماعناه الإمام «جعفر الصادق»[1] حين قال: (إنها ليست تخييراً مطلقاً، كما أنها ليست جبراً مطلقاً، ولكنها منزلة بين المنزلتين أو أنها جماع بينهما)..

إنها حرية أن تختار قدرك: التسليم + الطاعة= الإسلام.

* * *

هذا الطوفان البشري يتدفق عبر حدود منى وينهزم إبليس في أرضه.. في ذات اللحظة التي ينهزم فيها الشيطان ترفع شمس اليوم العاشر رايات النصر..

مع ابتسامة الشمس الأولى تصدر إشارة العبور وأوامر بدء الهجوم لتبدأ المعركة، وفي ذات اللحظة تعلن الشمسُ النصرَ وإنجازَ المهمة.

هذا هو قدر التاريخ ومشيئة الله للناس.

كل ذلك في يديك وخاضع لإرادتك..

ولكن ماهو الشرط الأهم الذي يجعلك منتصرا- إذا انضممت إلى هذا الطوفان البشري- مع هؤلاء الناس الذين عزموا على القربى إلى الله «الأمة».. «المجتمع المتحرك اللانهائي» «بذلك النهر المتدفق الفياض كالإعصار الذي يخترق أي صخرة أو سد ماضيا حتى يلقي البحر ولا راد لمسيرتة؟!»

إن الشرط هو ألا تتوقف على الطريق من المشعر الحرام إلى منى، ولا تخطيء الطريق سالكاً طريقاً آخر غيرطريق الناس..

عليك إذن أن تبقى مع الناس، فإذا فعلت فستصل إلى منى وستهزم الشيطان وستضحي بإسماعيلك..

هذا هو أمر الله المبين لكل هؤلاء الذين جاءوا إلى الحج :

---

(١) هو أكبر أحفاد الإمام علي كرم الله وجهه.

﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾[1].

هاهو جيش التوحيد يدخل وادي منى.. ميدان القتال، مزوداً بسلاحه الكامل وعزيمته الكاملة.

***

(١) البقرة: ١٩٩.

جبهة القتال - رمي الجمرات

تنتصب الشياطين الثلاثة على طول شارع الملك.. تفصل بينها- تقريبا- مائة متر.. يمثل كل منها: أثراً أو تمثالاً أو صنما.. كل عام تطلى وجوههم باللون الأبيض.

«الله أكبر»: يالها من عبارة فياضة بالمعاني..

لقد وصل الجيش.. الكل مزود بالسلاح «الجمرات» ومستعد لإطلاق النار.

عندما تصل إلى الجمرة الأولى لا ترمى، ولكن اعبر!..

وعندما تصل إلى الجمرة الوسطى لا ترمى، ولكن اعبر أيضا!!..

وعندما تصل إلى الصنم الثالث حيث «جمرة العقبة» لاتعبر، ولكن ارم!..

لماذا؟!

إن القادة المخضرمين من ذوى الحنكة والتجربة عادة يوجهونها نحو السير بالتدريج وبطريقة تصاعدية وبكل هدوء على طرق متوالية..

لكن القائد هنا هو إبراهيم عليه السلام وأوامره هي:

- «اضرب الأخير في هجومك الأول»!

«هل رميت؟»

- «نعم».

- «كم رميت؟».

- «سبع مرات».

- «هل أنت واثق أنها أصابت الهدف؟».

- «نعم واثق».

- «هل ضربته في البطن أم على الأقدام؟».

- «كلا.. لا هذا ولا ذاك».

- «هل ضربته من الخلف؟».

- «هل رميته في الرأس والوجه؟».

- «كلا».

- «نعم فعلت».

- «نِعْم مافعلت».

لقد انتهت المعركة..

عندما يسقط الأخير فلا سبيل لأن يقاوم الأول والثاني..

إن الصنم الأخير هو الذي يدعم الصنمين الأول والثاني..

***

بعد أن تغادر جبهة القتال فلن تفعل شيئاً آخر غير تقديم الفداء، وعندئذ فقط لك أن تحتفل بانتصارك وتعلن عنه: اخلع عنك ثياب الإحرام وارتد ماتشاء من الثياب، واحلق شعرك وتعطر إن شئت وضم إليك زوجك[1].

أنت حر الآن.. أنت إنسان!؛ لقد هزمت منى وانتصرت على الشيطان.

ماالذي أقوله؟.

إنك إبراهيم الآن..

إنك في مقام التضحية بإسماعيلك في سبيله تعالى.

***

---

(١) عند أهل السنة جميعا يحل للحاج كل شيء إلا النساء فهو تحلل أصغر فيحرم على الحاج النساء (المراجع).

القربان

بعد أن ترمي الصنم الأخير تقدم مباشرة بالأضحية .

إن هذه الأصنام الثلاثة تجسيد للثالوث ورمز للمراحل الشيطانية الثلاثة..

دائما كن على يقظاوأنت تراقب نيتك منتبها لمقاصدها..

يجب أن تعرف ماالذي تفعله؟ ولماذا تفعله؟!

***

هذه الشعائر يجب ألا تشغلك عن استشراف هدفك من ورائها؛ إنما هي «إشارات» و«رموز»، ولذا ينبغي أن تكون فطناً لما ينبغي أن تراه..

هذه الإجراءات والفنيات والأشكال لا تدعها تلتبس عليك وتربكك ويشكل عليك أمرها ..المعاني هي التي ينبغي استشعارها لا الأشكال.

***

«إن الحج شعائر وليس مناسك».

أثناء الحج كل فعل لا يبدأ إلا ويسبق بالنية؛ فكل فعل بلا نية باطل ولا يقبل..

النية أيضا تسبق فريضة الصيام، وإذا نسيت أن تنطق بها فأنت تستيقنها على نحوما.

هذا أيضا ينطبق على الجهاد، وإذا لم تكن لك نية فأنت لم تصبح بعد جندياً مقاتلاً..

في الحج أعمالك لا طائل من وراءها بلا نية؛ إذ أن هذه المراسم «إشارات» و«رموز» و«علامات»..

فالذي يضع جبهته على الأرض دون أن يعي معنى السجود فهو لا يعدو أن يكون ماساً

للتراب بجسده، والذي لا يدري جوهر الحج يعود من «مكة» بحقيبة ملأى بالهدايا وعقل فارغ [1]

* * *

أثناء الحج ستقوم بالآتى :

* ستعلن التوحيد بالطواف ..
* ستخوض نضال هاجر فى السعى ..
* ستعرض هبوط آدم عندما تنتقل من الكعبة إلى عرفة ..
* ستعرض فلسفة خلق الإنسان ، وتطور فكره من العلوم البحتة إلى الحب المحض، وسموق الروح من الطين إلى الله عند ما تذهب من عرفة إلى منى .

* * *

إن المرحلة الأخيرة فى التطور نحو المثال هى : مطلق الحرية فى مطلق التسليم.. أو هى : مرحلة إبراهيم .. وهى تلك التى تقع فى منى

أننت الآن مقدم على أن تفعل مثلما فعل إبراهيم حينما جاء بابنه إسماعيل ليذبحه ..

فمن هو إسماعيلك ؟ أو ماهو ؟! ...

موقعك ؟ .. لقبك؟ .. مهنتك؟ .. مالك ؟ .. بيتك؟ .. مزرعتك؟ .. سيارتك؟ .. حبك؟.. أسرتك؟ .. المعرفة؟ .. الطبقة الاجتماعية؟ .

الفن؟..الأزياء؟..الاسم؟..حياتك؟..شبابك؟ ..جمالك؟..

كيف يمكننى أن أعرف ؟! .. أنت وحدك الذى تعرف ما فى نفسك!.

مهما يكن إسماعيلك أو كيفما كان، يجب عليك أن تأتى به إلى هنا معك لتضحى به ..إنى لا أستطيع أن أحدده لك، ولكن بإمكانى أن أعطيك بعض مفاتيح معرفته التى تعينك فمثلا: كل الذي يضعف إيمانك .. كل الذى يصدك عن السبيل .. كل الذى ينأى بك عن تحمل المسؤولية.. كل الذى يجعلك غارقا فى ذاتك .. كل الذى يصم أذنيك عن سماع دعوة الإسلام والاستجابة لها .. كل الذى يجبرك على الفرار .. كل الذى يجعلك

---

(١) فى مكة اليوم العديد من المخازن التى تبيع مختلف الهدايا كالمعدات الكهربائية و أوانى البيت والمجوهرات وغيرها، وكثير من الناس يتعاملون مع الحج كفرصة سانحة جذابة للسياحة الشرائية حيث يصرفون وقتا طويلا وما لا كثيراً فى حشو حقائبهم .إن مكة اليوم سوق حر جيد للتجارة الخارجية .

تستجيب لداعى القعود والوخم والسكون. كل الذى يجعلك أعمى وأصم ..

أنت الآن فى مقام إبراهيم الذى كان ضعفه يكمن فى حبه لإسماعيل : «ابنه»..

لقد حاول الشيطان أن يغويه ...

تخيل نفسك في ذروة المراحل.. ممتلئا بالفخر والزهو، وهناك شيء واحد فقط يمكن أن تترك فى سبيله كل شيء ، وتضحى من أجله بكل حب سواه ليبقى لك حبه.. هذا هو إسماعيلك!إسماعيلك هذا قد يكون «شخص»أو «مرتبة» أو «موقع» أو«موضوع» أو حتى «ضعف»...

لكن الأمر بالنسبة لإبراهيم هو ابنه..

كانت حياة إبراهيم تمضى إلى خواتيمها بعد أن امتد به العمر لمائة عام شهد خلالها من الكفاح والحركة والتشرد والقتال فى جهاد ه المقدس ما شهد، وبعد أن واجه جهل قبيلته، وواجه قهر النمرود، وواجه تعصب عبدة الأصنام..

لقد كان في شبابه ذكيا متمردا إلا أنه قضى تلك الفترة من العمر فى بيت «آزر» أحد المتعصبين لعبادة الأصنام، بل كان هو نفسه صانعا لها !..

وكان قدر إبراهيم فى الزوجة هو «سارة» العقيم التى يتمثل فيها تعصب الأرستقراطية. لقد عهد الله لإبراهيم بالعمل الصعب . أي أن يكون نبيا للتوحيد فى نظام قائم علي القهر وفى عصور الظلام..

ومع كل ذلك تسامح إبراهيم مع مائة عام من القهر والتعذيب وهو يبث الدعوة والوعى والحب والحرية بين أناس أشربوا الاستعباد ...

وقد مضى بإبراهيم العمر وهو مايزال وحيداً .. وقد ظل إبراهيم - حتى وهو فى ذروة مقام النبوة - إنساناً يتمنى أن يكون له ابن[1] .

بلغت زوجته سن اليأس، وتجاوز هو المائة عام ومع ذلك ظل قلبه مليئاً «بالأمنية» وليس

---

(١) على النقيض من فلسفات وثقافات الهند والصين والإغريق وحيث يتحول الأبطال والنبلاء والملوك من مقامهم إلى مقام «الألوهية»! فإن إبراهيم عليه السلام ظل دائما إنساناً رغم أنه مرسخ دعائم عقيدة التوحيد وأبو الأنبياء العظام «موسى وعيسى ومحمد» صلى الله عليهم وسلم ،لم يكن إبراهيم عليه السلام فى يوم من الأيام فى أذهان الفلاسفة والشعراء مثالاً ولا إلها فلسفيا ولكن ظل دائما إنسانا حقيقياً بكل حاجاته وغرائزه وعواطفه إنه إنسان ممن يصطفيهم الله

«بالأمل»...

وقد جاء الأوان الذى أنعم فيه الله سبحانه بالجزاء على الشيخ المسن وعلى عمره فيما أبلاه وهو يعانى فى إبلاغ رسالته ...

فقد بارك الله أيامه الأخيرة بابنه إسماعيل من خادمته «هاجر» تلك ، المرأة السوداء التي لم تكن ترقى مكانتها حتى تثير الغيرة فى قلب «سارة» زوجة إبراهيم الأولى .

لم يكن إسماعيل ابنا فحسب، ولكنه كان ثمرة لكل آمال العمر، والجزاء الذي أعطي لحياة حافلة بالجهاد، وهو أيضاً الابن الوحيد لوالد مسن، هو عنده أعز ماوجد فى كل تلك الأعوام العامرة بالبلاء..

لقد كان الأمر بالنسبة لابراهيم هو ابنه، ولكن قد يكون إسماعيلك هو: أنت.. أو أسرتك.. أو وظيفتك .. أو ثروتك.. أو شهرتك .. لاأدرى ! لكن كان لإبراهيم «ابنه».. مثل ذلك «الابن» لذلك «الأب».

أمام عينيه– تلك العيون التى دب المشيب إلى حاجبيها، لكنها اليوم تشع بالسعادة – كان إسماعيل يكبر وينمو ويترعرع متلقيا كل الرعاية والحب والحنان من أبيه الذى كرس روحه بثبات ورسوخ من أجل حياة ابنه..

إنه ينظر إليه على أنه نبته فى أرض مقفرة لمزارع مسكين: (كل لحظة من أيامى الأخيرة يجب أن يتمتع بها)[1]...

لقد كانت متعته فى وجود ابنه إسماعيل..

إن إسماعيل يختلف عن أى طفل آخر عادى :

أولاً: لأن أباه ظل يتمناه لمائة عام .

ثانيا: لأنه ولد على غير توقع وفى دهشة عظيمة من أبيه .

هاهو إسماعيل يشب قويا كما تشب الشجرة . ..

لقد أعاد الشباب وأشاع السعادة فى حياة أبيه...

أصبح إسماعيل لأبيه الأمل والحب والأهل..

لقد بلّغت الرسالة : (يا إبراهيم ضع السكين على عنق ابنك وضح به بذات يديك)!.

---

(١) العبارة لأندريه جيد. راجع هامش صـ ٩١.

كيف يمكن للمرء أن يصف فزع إبراهيم ساعة تلقيه الرسالة القاصمة ؟!..

حتى لو كنا شهودا ساعة ألقيت الرسالة لن نستطيع أن نتصور حقيقة شعوره..

لاريب أن مقدار ألمه قد فاق حد الاحتمال والتخيل .. إبراهيم ذلك العبد الشديد الخضوع لله (أواهٌ منيب) .. إبراهيم ذلك المتمرد الشهير فى تاريخ البشرية.. إبراهيم ذلك المؤمن الذى لم يهزم عبر كل تاريخ الإنسانية،يتزلزل الآن وكأنه يتناثر أجزاء !

لقد صدمته الرسالة بعنف..

ولكن الرسالة هى أمر الله..

إن أعظم الجهاد ذلك الذى تجاهد فيه نفسك (الجهاد الأكبر)..

وها هو البطل المنتصر فى أعظم معارك التاريخ ينكسر الآن ويضعف ويخاف ويحتار ويقنط!..

إبراهيم يخوض الآن صراعاً داخليا فى أن يختار بين إسماعيل والله .. ياله من قرار صعب لابد أن يتخذ!..

أيهما ستختار؟!الله أم نفسك؟! المنفعة أم القيم؟! الاستعباد أم الحرية ؟! الدبلوماسية أم الحقيقة؟! الركود أم الحركة؟! السعادة أم الكمال؟!المتعة أم المعاناة فى سبيل المسؤولية ؟! الحياة من أجل الحياة أم الحياة من أجل هدف؟! الحب والسلام أم العقيدة والجهاد؟! هل تتبع طبيعتك أم إرادتك الواعية؟! هل تخضع لمشاعرك أم تخضع لإيمانك؟! أن تكون أباً أم تكون نبيا؟! ترعى أقاربك أم تحمل الرسالة ؟! .. وأخيراً: الله أم إسماعيل ؟!

ياإبراهيم اختر!..

بعد مائة عام في النبوة بين الناس

وبعد حياة حافلةبالكفاح ضد عبدة الأصنام أولئك الجهلة الطغاة..

وبعد أن ظللت منتصرا فى كل الجبهات..

وبعد أن وفقت فى حمل المسؤولية بكل تبعاتها دون أن يتطرق إلى قلبك ذرة من الشك فى الطريق الذى اخترته، ودون أن تقيم أى وزن للرغبات الشخصية ..

وبعد أن وصلت من القرب من الله درجة هى أقصى ما يستطيع إنسان أن يبلغه بجهده..

وبعد أن رسخت أمة التوحيد واجتزت كل المحن والابتلاءات .. لا تظن- بعد كل هذا

ـ أنك لن تتردد ...

لا تخلد إلى الراحة ...

لا تعتبر نفسك بطلاً لا تقهر وأنك بلا جوانب ضعف.. يجب ألا تضللك وتخدعك الانتصارات التى تتالت عليك عبر مائة عام ...

هل تعتقد أنك وصلت لدرجة العصمة ؟! ..

كلا لا تستشعر الأمن ..

إنك لست فى أمان ووقاية من إغواء الشيطان ، ولست فى أمان من تلك القوى الخفية التي تحيط بالإنسان

دائما هناك الكثير من أضواء المجد الزائفة التي تبهر الأبصار ...

والله تعالى يعلم عنك أكثر مما تعلم عن نفسك . . .

يعلم أنك ما تزال مهيض الجناح !..

ويعلم أنك ما تزال بك ثغرة تنظر منها إلى الدنيا وأعراض الدنيا !..

إنه يريد أن يقطعك عن كل صلة مهما دقت مع هذه الدنيا ...

ياإبراهيم ...

أيها البطل المنتصر فى معركة التاريخ الكبرى ...

بروحك السامقة ، وصمودك الذى لا يتزعزع (ياذا العزم من الرسل)... لا تظن أن أمر الله معك قد انتهى ...

إن الله ليس ببعيد عن الإنسان !

﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[1] لكن .

المسافة بعيدة بعدها عن الأبدية ..

لا تحسبن الأمر سهلاً !..

فى مقام «النبوة» قد بلغت ذروة الكمال، ولكن فى «الطاعة» لم تبلغ بعد الكمال ..

آه ياخليل الله ومرسخ عقيدة التوحيد ومعبد طريق موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة

---

(١) ق: ١٦.

والسلام!...

أيها الأسوة لمجد الإنسان وكرامة الإنسان وكمال الإنسان . .أنت «إبراهيم» ، ولكن أن تكون «المطيع» فذلك أمر عسير!

يجب أن تكون خالصاً لله تعالى متحرراً من كل مادونه..

تواضع واترك الزهو بنفسك والأمن من السقوط من قمتك!

إن سقوط الذين بلغوا القمة الأسمى لخطب جلل ومأساة عظيمة .

***

التضحية بإسماعيل

ابنك العزيز..

ثمرة حياتك ..

منعتك وسبب بقائك ..

معنى وجودك ..

كلا ! بل إسماعيلك ...

اطرحه أرضا كما يطرح الكبش وقدمه قربانا !...

امسك بأطرافه تحت قدميك حتى لا يهرب!..

امسك برأسه جاذبا شعره بيديك وجز عنقه ثم ابق عليه تحت قدميك حتى تطمئن تماما أنه بلا حراك ثم .. انهض ودعه لحاله!..

آه أيها «المطيع» ،«العبد» لله هذا مايريده الله منك.. هذا «نداء إيمانك» و«روح رسالتك».. هذه هى مسؤوليتك ... أيها الإنسان المسؤول ياوالد إسماعيل!

* * *

أمام إبراهيم خياران: أن يستجيب للوعة قلبه و«ينقذ» إسماعيل ...

أو يستجيب لأمر الله و«يضحى» به ....

لابد من اختيار أحدهما : « الحب» أو «الحق»....

إنهما يصطرعان بداخله: «الحب الذى هو حياته والحق الذى هو إيمانه» ..

لو أن الله تعالى طلب منه حياته نفسها لكان الأمر هينا، فقد جعل إبراهيم حياته فى سبيل الله ولهذا فهو يشعر أنه «مطيع» لله ...

إن شعوره هذا «أنانية» و«ضعف»....

ذلك أن الطيب الجميل عند أناس يعد منكراً وقبيحا لرجل فى مثل مقام إبراهيم، ذلك لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين...

إنه الأقرب إلى الله .....

(لاحظ نسبية الأخلاق فى مدرسة إبراهيم ، وياله من فهم جد مختلف)[1]

---

(١) يشير المؤلف إلى المقارنة مع نسبية الأخلاق في الفلسفة الغربية المعاصرة والتي تجعل الخيانة في بعض الأحيان فضيلة.. إلخ فهي نسبية انحطاط عكس نسبية الأخلاق عند متصوفة الإسلام.

يا إبراهيم .. تخل عن إسماعيلك !

شك !..

كم ذلك خطير وقاتل ! ..

النتيجة المتوقعة هى اللجوء للتفسير والتأويل ينشد عندهما مخرجا..

وهذا يحدث حينما يكون القلب كارها بينما الإيمان عاشقا!..

وعندما تطلب من «حامل المسؤولية» التخلى عن ابنه فإنه يفعل ، ولكنه أمر - فى ذاته - بالغ العسر.. إنه يبحث عن وسيلة للفرار..

إن الأسوأ من «التأويل الخاطىء» هو «التوضيح السليم » الذى يتعمد ذكر حقيقة وإخفاء أخرى!..

والمصيبة الكبرى عندما يلبس الباطل ثوب الحكمة ويرفعها سيفا مسلطا بيد، ويمسك «الدنيا» كترس يتترس به باليد الأخرى !..

ضح بإسماعيلك ...

كيف أفهم هذا الأمر؟..

كيف أستيقن أن المقصود بكلمة «ضح» ليس المعنى المجازى ؟!(كأن يكون معنى «ضح بروحك »بمعنى أن لا تكون عبداً لغرائزك واجتنب إغواءها)...

كيف أعرف أن الضمير فى إسماعيلك لايعود تقديره إليّ أنا؟! ومن ثم أكون«أنا»محل استقبال الرسالة!..

لماذا لايكون هذا الأمر خطاب عام جاء فى صيغة خطاب خاص؟!

كيف أعرف أن إسماعيل هنا يعود إلى إسماعيل وليس - كما أسلفت - مجرد معنى مجازى؟؟..

كيف أعرف - استنادا على رأى بلاغى(١) - أن كلمة إسماعيل فى الجملة «ضح بإسماعيلك» ليست اسماً جاء فى موقع المفعول به، ولكن ذكر المحل ويراد به الحال كما هو شائع فى العربية ووارد فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ﴿**واسأل القرية التى كنا فيها والعير**﴾ والمقصود اسأل أهل القرية ، فيكون معنى «ضح بإسماعيل» أى ضح من أجل

---

(١) هذه تفسيرات تعود لبعض طرق علم البلاغة التي تشكل أحيانا على المعنى أكثر مما توضحه .

حب إسماعيل..

دعنا نفترض أن كل هذه التأويلات غير واردة، وأن الأمر المقصود هنا هو المعنى البسيط المباشر الذى يتبادر إلى أي ذهن ..

ضحِ بإسماعيلك ..

كيف أعرف أن هذا الأمر يجب أن ينفذ حالاً؟!..

ألا يوجد نطاق زمانى محدد شأن كل قانون مكتوب؟..

إن ذلك هو دور الحكمة فى اختيار الوقت المناسب ، مع الأخذ فى الاعتبار التقديرات والظروف والسياسة والإمكانات والاحتمالات ...

القرآن الكريم يأمرنا بالجهاد فى سبيل الله ، ولكن وقت الجهاد وشكله يعتمدان على التقديرات والظروف التي تأخذ بها الحكمة ..

مثال آخر من السنة المطهرة عندما تأمر بطلب العلم وتقول : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»

إنها لا تفرض على أحد أداء هذا الواجب فى وقت محدد حتى ولو قام بأداء هذا الواجب فى الساعات الأخيرة من حياته وهوعلى فراش الموت !..

الحج - أيضا- يمكن أخذه كمثال للواجب على التراخى ، وهناك الكثيرون الذين يؤجلونه عاما بعد عام، وبعد أن يعيشوا حياتهم الطليقة، وعندما تقترب أيامهم من النهاية قد قد يقررون أداء هذا الواجب!.. فهذا واجب يمكن أن يؤدي في أي وقت.

هؤلاء المؤمنون يظنون أن هذه المسؤوليات تؤدى من أجل الحياة الآخرة وليس من أجل هذه الحياة الدنيا...

إنهم يحسبون أن شرائع الدين إنما جاءت من أجل اليوم الآخر وليس السبيل التي تنتفع بها هذه الحياة الدنيا ويتزكى بها الإنسان ويرتقى بها نحو مدارج الكمال [1] .

وكيف أعرف استنادا على طرائق النظر - أن هذه الجملة : «ضح بإسماعيلك» المقصود بها أمر واجب وليس مندوب ؟..

أغلب الظن أن المقصود هو الأخير!.. ألا يشبه هذا الأمر الأمر الآخر الذى يقول

---

(١) ينتقد المؤلف فى الفقرات السابقة و اللاحقة مفاهيم وسلوكيات شائعة بين المسلمين ليست من الإسلام .

﴿وآتوا الزكاة﴾ حيث أن الجميع يجب أن يدفعوا للفقراء ما يستطيعون . أو الأمر كما في الآية : ﴿ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾(١).

فذلك فعل بغيض عند الله .. وهو أمر إرشادى جاء بالإيحاء ليذكرنا بما تهدينا إليه حكمتنا.

وإلى جانب كل هده التفسيرات الحكيمة والمشروعة والإستشهاد بالآيات والقصص، والاستناد إلى معايير البحث العلمي ومقاييس العقل، ومن أجل كل الغايات الخيرة .. فإن قتل النفس هو ذنب ولا ريب ولا يجوز للمرء أن ينسب مثل هذا المنكر إلى الله تعالى وهو أرحم الراحمين . ..

***

وإذا صرفنا النظر عن كل ما سبق من تفسيرات وتأويلات، يبقى مع ذلك واضحاً من هذا الأمر أن الله الرحمن الرحيم يريد أن يذكرك أن حبك لإسماعيلك لا يعنى شيئاً وأن التسليم للحق يوجب عليك التخلى عن كل رغباتك التي كانت تحتوى تفكيرك وتحجبك عن الصلة بالله ..

ومنذ أن أصبح حب إسماعيل شاغلاً لإبراهيم عن تحمل المسؤولية ـ ولو قليلاً ـ أمره الله أن يضحى بإسماعيل حتى يخلص تماما لله(٢) .

وكما أسلفنا فإن «ضح بإسماعيلك» تعنى : (لا تعطى كل هذا الحجم وهذه المشاعر لحب إسماعيل)، وهو ذات المعنى الجوهرى الذي نجده في الآية الكريمة .:

﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾(٣).

نعم .. إنه اللجوء للتفسير للبحث عن مهرب يستعمل عندما يكون قبول الحقيقة صعب وعسير وعندما يكون تحمل المسؤولية أمريناقض أحلام المرء وأمانيه ...

أما عندما تكون الحقيقة والعدل مجرد مشاهد على مسرح الحياة فإن الكثيرين

---

(١) البقرة : ١٨٨.

(٢) يقول تعالى : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ البقرة : ١٦٥ (المراجع) .

(٣) الأنفال: ٢٨.

سيتحدثون عن العدل وعن حقوق الإنسان ، ولعلهم - في نصرتهم للحق والعدل الذى لايمسهم- يعزون أنفسهم بأنهم يقومون ببعض أعمال طيبة أثناء المسار الروتيني لحياتهم السعيدة وهم يديرون أعمالهم دون تعكير أو اضطراب !..

إن الحقيقة والعدل عندما يتوافقان مع الحياة ويتسقان مع خطها المعتاد فإنهما يستعملان كرأسمال وكأداة وكوسيلة للشهرة وكسبيل إلى منصب ومرتبة وكرخصة للحياة !..

فى هذه الحالة لا يكتفى الناس بالحديث عن العدل بل يعتقدون إلى جانب ذلك أنهم صالحين باستعدادهم لبذل خدماتهم للآخرين !!..

أما عندما تصطدم الحقيقة والعدل بمسار حياتنا اليومية، ويصبح أنصار الحقيقة والعدل فى مأزق وخطر، وأنه على «الصالحين» تحمل أعباء ثقيلة من المسؤولية .. عندما يظلم الطريق ويأتى الليل بعواصفه المحملة بالمخاطر والمهاوى .. حينئذ تفقد الحقيقة والعدل أنصارهما فيعز الرفيق إلا من فئة قليلة ، وقد يسير الإنسان- فى بعض الأحيان - وحده وليس معه أحد .

وعلي الأنصار أن يتركوا وراءهم كل عائق ويتجاوزوا كل العقبات مهما عظمت، خاصة أولئك الذين يعيشون فى ظلمات القهر حتى كادت فطرهم أن تنطمس...

* * *

إن الله الرحمن الرحيم يأمرك بالتضحية بحياتك وبحبك كى تمضى علي سبيله ، ولكن إغراءات الشيطان تشدك إلى الركون إليها واتباع سبلها.. كيف ؟! ... بالتبريرات ! تلك التبريرات التى تحور إيمانك حتى يتوافق مع مطالب الدنيا.. وعندها لن يصمك أحد بالكفر أو بالعصيان أو مخالفة الناس !! ..

هنا التبريرات تكون : حقا أريد به باطل!..

إنك تخلع عليها ماتشاء من الأسماء : المجتمع .. الأخلاق .. العلمية .. النفسية .. الجدلية .. التفسير العقلانى ..

ليس ثمة فرق بين كل ذلك ! . .

لكن فى الحج وفي سيرة حياة إبراهيم - ذلك العظيم الذى انتصر فى كل المحاكمات والأمين الذى أخلص وجاهد وناصر الحق والعدل علي إطلاقهما - فقد سمى الله تعالى التبريرات فيها : إغواء الشيطان ..

لقد أضعفت التساؤلات حكمة إبراهيم الواضحة القوية :

كيف أستطيع أن أعرف ؟ .. كيف يكون ذلك ؟ ... لقد وصلتنى الرسالة عن طريق الرؤية فقط!..

هكذا كان يقول ...

وكان الشيطان يضرب على أوتار حب إبراهيم الشديد لابنه ويدخل له من موطن الضعف هذا جاعلا إياه وسيلة معقولة للهروب!..

كانت هذه هى المرة الأولى : **الجمرة الأولى** .. وقد رفض إبراهيم أن يضحى بابنه.

«ياإبراهيم يجب عليك أن تضحي بابنك»

الرسالة هنا أوضح وأجلي ...

الصراع يحتدم فى صدر بطل التاريخ بسبب إغواء إبليس، وإذا بإبراهيم يشعر بالضعف والشك والخوف والهزيمة فى الصراع بين الله والشيطان .

* * *

في عمق الجبلة البشرية يوجد تضاد بين الحب والحكمة .. بين الحياة والإيمان .. بين أن تكون فى سبيل ذاتك وأن تكون فى سبيل الله . .

هذه هى طبيعة الإنسان ...

ظاهرة تقع بين الروحانية والحيوانية .. بين الدنيا والآخرة ... بين الغريزة والحكمة .. بين السماء والأرض .. بين حب النفس وحب الله .. بين الواقع الجاهلى والحق .. بين الكفاية والكمال .. بين الاستعباد والتحرر .. بين التسيب والمسؤولية.. بين الكفر والإيمان .. بين فى سبيل الأنا وفى سبيل نحن .. وأخيرا: بين من أنا وما يجب أن أكون .

* * *

اليوم الثانى وإبراهيم يرجح فى ميزانه حب ابنه على مسؤوليته أمام الله .

«حياة إسماعيل فى خطر»

هكذا يوسوس الشيطان لإغواء إبراهيم ، وكما أضل آدم ودفعه ليأكل من الشجرة المحرمة فى الجنة ، وكما هو شأن الإنسان ـ أي إنسان– فيه جدلية المكونات : الطين والروح ..

إبراهيم كذلك فى شك: أيختار ابنه أم الرسالة.

﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾(١).

* يانبى الله إن الرسالة هي مسؤوليتك ..

يانبى الله هل تريد أن تكون أبا لابنك .

* هل يجب عليّ أن أضحى بإسماعيل بيدى هاتين ؟

* نعم !

* نعم ! يجب أن أضحى بابنى فى سبيل الله ..

إن قهر العاطفة لا يرقى لعظمة عقيدتى . .

هل يجب أن أبقى أبا لإسماعيل أم أمضى على طريقى حاملاً الرسالة ؟ (الشيطان يحاول مرة ثانية)

*لقد بلغتنى هذه الرسالة فى الرؤيا فكيف تكون حقيقة ؟!.

هذه هى المرة الثانية التي يرفض فيها إبراهيم التضحية بابنه هذه هي **الجمرة الوسطى** .

«ياإبراهيم ضح بابنك إسماعيل »

لقد جاءت الرسالة هذه المرة واضحة جلية تستعصى على كل طرائق التبرير العقلى ... إنه بلاخيار ، فالنداء بيّن كما الأبيض والأسود . . .

والشيطان بكل مهارته وذكائه لن يستطيع أن يفعل أى شيء للتشويش عليه.

وإنكار الرسالة يعني طاعة الشيطان.

* * *

إبراهيم الآن على حافة واد سحيق ..

هل أزفت ساعة سقوطه؟! ..

هل يجوز ذلك على إبراهيم الذى كسّر الأصنام ؟!..

ذلك الرسول من أولى العزم .. قائد الأمة ومرسخ الإسلام يسقط من بهاء ذروة التوحيد إلى هاوية الشرك السحيق .. ليس كفرا ولكن إيمان بآلهة عديدة تعبد مع الله!!!...

---

(١) الشمس : ٩.

القرآن الكريم يصف إبراهيم واقفا فى منى بين أمر الله تعالى ووسوسة الشيطان ...

إنه لا يستطع أن يستجيب لكليهما ، ولا يستطيع أن يتجاهلهما ..

يالها من قصة مروعة !!.

رجل هو خليفة الله... تخلق بأخلاق السماء .. يستطيع أن يفعل ما يشاء . يستطيع أن يحكم كل العالم .. هنا ما أضعفه ! وما أعجزه ..

فيه روح الله ، لكن مع ذلك يحمل ضعفه بين جنبيه :

﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾ (١) .

فى هذه الدنيا لا أحد بمأمن من السقوط مثل الطفل الذى أقدم لتوه على تعلم المشى! يجب أن تكون يقظا حتى لا تسقط . .

لقد كاد أن يسقط، وإذا سقط فلم يعد بريئا من الشرك :

﴿ولئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ (٢)

على مشارف النهاية فى حياته يعيش إبراهيم ذلك الأب .. نبي (الإسلام العظيم) ذلك المتحلّى بروح الإنسان وحب الله .. سيق إلى حافة الهاوية بسبب حبه لابنه إسماعيل .. بعد أن ظل نصيرا للحق ، مؤمنا، صادقا لمائة عام خلت يكاد يسقط فى شرك الشيطان .

«ياإبراهيم ليس لك خيار أمر الله عن يمينك ووساوس الشيطان على يسارك أيهما ستختار ؟!.........»

الآن ليس هناك ارتياب فى الرسالة ..

* * *

إن الباحث عن الحقيقة لا يكاد يخطىء السبيل كالنحلة التي تجد طريقها إلى بيتها فى الدجى الدامس وسط العواصف الهوج في عمق الصحراء أو فى شعاب جبل ناء بعيد .

كلا ياإبراهيم إن الذى عاش حياته الطويلة كلها أهل للثقة ينبغى ألا يكون ضحية لأحابيل الشيطان .

إن قبول الرسالة مثل القفز فوق النار ، والشيطان هو العدو الذى يتظاهر بمحاولة

---

(١) النساء : ٢٨.

(٢) الزمر : ٦٥.

إطفائها، ولكنك ـ بنظرك المحجوب برغبات نفسك– لا تستطيع أن تحدد من هو العدو ومن هو الصديق استناداً لتظاهره هذا ؛ إذ أن هذا الحكم ينبغي أن لا ينبني على رغبات النفس.

كان جليا لإبراهيم ما الذى يجب عليه أن يفعله ، ولكن ريبه وشكوكه السالفة كانت وليدة حبه الشديد لإسماعيل ..

والد مسكين ... طاعن فى السن ..ظل ينتظر ابنا على يأس ولسنوات ، ولكن جاءه أمر أليم ممض فى الألم ..

آه ..يالها من مأساة مروعة !..

كانت مسؤولية إبراهيم فوق احتمال الشيخ الكبير والأب الوحيد الذى يتعين عليه أن يضحي بابنه .. وقد يكون هذا الأمر مريحاً ويسيراً .

ولكن لا .. اسماعيل الصغير هو الذى يموت، ويبقى الأب المسن وحيداً .حزينا ..بيديه الباليتين وقد ضرجتهما الدماء .

عندما يفكر إبراهيم فى الرسالة فهو على تسليم مطلق بها ..

ولكن حينما يفكر فى التضحية بوحيده إسماعيل يغمره الألم الهائل الذى يفوق الاحتمال .. الألم الذى يفت فى عضده راسما فى وجهه ملامح الأسى العميق ..

أن الشيطان حين ينظر إلى إبراهيم وهو فى هذه الحالة من الشقاء يعمل على خداعه مرة أخرى ..

إن الشيطان هو العدو المبين للإنسان ؛ فمهما تكن الحالة وعلى أي نحو تكون فإن الشيطان يشرع فى مزاولة مهمته القذرة .

إنه يلهيك حتى يبقيك بعيداً عن أداء واجبك ، ومن ثم تبقى حقيقة الرسالة بمنأى عن الإدراك .

* * *

﴿أنما أموالكم وأولادكم فتنة .. ﴾[1] .

لقد كان حب إسماعيل بمثابة امتحان لإبراهيم ؛ إذ هو ضعفه الوحيد عندما يواجهه إبليس ..

---

(١) الانفال : ٢٨

لقد عرف إبراهيم أن الرسالة الموحاة واضحة ، وأنه لابد أن يضحى بابنه، وغدا حزيناً مكسور القلب..

ومن هنا تسنت الفرصة للشيطان فى التسلل إليه لخداعه بعد أن أحس بتلك الحال ؛ فظهر أمام إبراهيم هامساً بذات الوسواس[1]:

لقد سمعت هذا الأمر فى الحلم

كلا إن ذلك كافيا.. إن ذلك كافيا (هكذا يحدث إبراهيم نفسه)

لقد اتخذ قراره، وأضحى اختياره قاطعا: محض الحرية فى طاعة الله .

(محض الحرية فى التضحية بإسماعيلك)

لقد انزاحت العقبة الأخيرة التى كانت تحجب طريق إبراهيم عن حريته ...

لقد قرر إبراهيم أن يشرك ابنه فى تلقى الرسالة ، ومن ثم دعاه .. جاء إسماعيل .. فنظر إليه أباه من رأسه إلى أخمص قدميه :

إنه الضحية والفداء العظيم

***

---

(١) الشيطان ليس له منطق مختلف، لكن يردد نفس الأشياء بصور متعددة ووسائل متغيرة. (المؤلف).

الحوار بين الأب والابن

في ركن قصي بمنى وقف إبراهيم يتحدث إلى ولده ..

الأب وقد اشتعل رأسه ولحيته شيبا بعد حياة امتدت لمائة عام ..

بينما إسماعيل فتى يافعا في بواكير الشباب...

إن سماء الجزيرة العربية ـ بل سماء الدنيا بأسرها ـ لتنوء بحمل رهبة هذا المشهد .

إن التاريخ لم يسجل أبداً ـ من قبل ـ مثل هذا الحوار بين أب وولده ..

بل إنه لم يخطر على قلب بشر قط مثل هذا الحوار بالغ المودة، وهو مع ذلك بالغ الهول.

* * *

في البداية استعصى على إبراهيم فتح فمه لسرد القصة على ولده:

(إنني هنا لأضحي بك بيدي هاتين)

وأخيراً استعاد إبراهيم الثقة بالله وقال:

﴿يابني إني أرى في المنام أني أذبحك﴾[1]

كانت كلماته سريعة خافتة فما استطاع هو نفسه أن يسمعها .. ثم غلب عليه الصمت وقد شحب لونه من الفزع صارفا بصره غير قادر على النظر إلى عيون إسماعيل.

كان إسماعيل يدرك مقدار مايقاسيه أبوه ؛ فجاءت كلماته تعبر عن المواساة:

(يا أبتاه كن مطيعا لله، ولا تتردد في التنفيذ، وستجدني ـ إن شاء الله ـ كذلك مطيعا، وبعونه –تعالى– سأحتمل ذلك):

﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاءالله من الصابرين﴾[2]

لقد وضع إبراهيم ثقته كلها في الله وهو يزداد خوفا ..

اتخذ قراره ونهض ممسكا بسكينه يحاول شحذها على قطعة حجر ..

هل يستطيع أن يفعل ذلك بابنه الذي أحبه كل هذا الحب ؟ !

(١، ٢) الصافات: ١٠٢.

إسماعيل ذلك الفتى الشجاع الذي تقبل أمر الله يبدو هادئا مطمئنا ، وكأنه ليس مقدم على أمر جلل..

وإبراهيم ذلك المحب الصادق لله حطم مشاعر «الأنا» جاعلاً توكله أولاً على الله وحده..ها هو يأخذ الضحية الصغير إلى محل الفداء ويطلب منه أن يضطجع على الأرض.. ثم يمسك برجليه ويجذب إليه شعره دافعا رأسه إلى الخلف حتى يتمكن من رؤية أوداجه ..

(باسم الله) .. وضع إبراهيم السكين على عنق إسماعيل ومضى ليقطع بأقصى مايمكن من سرعة ..

لقد حاول الشيخ المسن أن ينهي الأمر في لحظات .. لكن : مالهذه السكين لاتقطع؟!.. إنها تؤذى ابنى !! آه .. ياله من عذاب!.

إبراهيم يزأر كالأسد الجريح وقد اشتد به الفرق : أولست أبا !.. وسريعا يلتقط السكين ليحاول مرة أخرى ..

بقي إسماعيل – كل هذه الأثناء – هادئا فى طمأنينة لا يتحرك البتة..

قبل أن يعاود إبراهيم الكرة ظهر فجأة الكبش حاملاً الرسالة :

إن الله لا يطلب منك التضحية بإسماعيل ..

إن هذا الكبش مرسل إليك فدية له ..

لقد أطعت الأمر ياإبراهيم ..

الله أكبر ولله الحمد ...

إنه درس علمه الله الرحمن ..

منذ الآن ولاحقاً لن يضحى بإنسان كقربان لله..

تلك كانت منسكا لعبادة الله...

فى دين إبراهيم يقدم الكبش فداءاً وليس الإنسان ..

هناك درس آخر عظيم : ذلك أن إله إبراهيم مناقض لبقية الآلهة الأخرى من دونه التي تتلمظ جوعاً لأكل لحوم البشر .. إنه ليس متعطشاً للدماء شأن الآلهة الأخرى ..

ماأجمله من درس !، وما أعظمه من معنى !!..

إن الله لا يريد لإسماعيل أن يذبح، ولكن يريد من إبراهيم أن يذبح إسماعيل وقد فعل

وأطاع أمر الله فى شجاعة كاملة!..

كذلك كان إسماعيل جديرا أن يختار للفداء، وقد استحق النجاة بعد أن استسلم فى حلم وصبر جميل، ومن ثم فلا حاجة لأن يقتل..

إن الله الرحمن الرحيم ليس محتاجا سبحانه، بل نحن البشر الذين فى حالة الحاجة الدائمة إليه فى كل شيء.

* * *

تلك كانت مشيئة الله العلى الكبير، وهو أرحم الراحمين..

لقد رفع الله إبراهيم وكرمه إلى مرتبة الاستعداد للتضحية بإسماعيل دون أن يقتله حقيقة.. وكذلك رفع إسماعيل وكرمه ليكون ضحيته وقربانا له دون أن يلحقه أذى.

هذا هو دين إبراهيم : **الإسلام.**

إنه ليس تلك القصة التي تحكى عن الإله المتعطش للدماء[1] .. الإله المازوشست الذى يعشق تعذيب الإنسان.

إنها قصة كمال الإنسان وتحرره من الأنانية والغرائز الحيوانية، وسموه إلي آفاق النفوس الشريفة والحب والرحمة .. إلي تلك الإرادة القوية التي تحرره من كل شيء قد يعوق مسؤوليته كإنسان ذو وعى..

تلك الإرادة التي تدفع بصاحبها أن يضحى بنفسه (كإسماعيل) ويصبح من ثم شهيداً..

وأخيراً ليكون مثل «إبراهيم» ذلك الشيء الذى لا نجد له تعبيراً فى القاموس!..

* * *

هذه القصة تنتهى بالتضحية بكبش!...

هذا هو مايطلبه الرحمن فى خاتمة هذه المأساة الإنسانية العظيمة..

التضحية بكبش حتى تطعم به عدداً من الناس الجوعى.

مثل إبراهيم .. يجب عليك أن تختار إسماعيلك وتأتى به إلى منى.

من هو إسماعيلك..؟

---

(١) يشير إلى قصة الأب الروحى (God Father) عن الترجمة الإنجليزية.

لابد لك من معرفة ذلك ، وليس ثمة حاجة للآخرين أن يعرفوا ...

قد يكون : زوجتك .. وظيفتك .. موهبتك .. الجنس .. السلطة .. المال . .. الخ.

أنا لا أدرى أيهم .. لكنه ذلك الشىء الذى يقع منك فى موقع عزيز عزة موقع إسماعيل لدى إبراهيم !.

إن بعض سمات إسماعيلك وعلاماته تجدها فى كل ما يأخذك بعيداً عن حريتك ، وفي كل ما يتوقف بك عن أداء واجبك ، وفى كل متعة تعطيك السلوى ، وفى كل ما يصم أذنيك ويمنعك عن معرفة الحقيقة ، وفى كل ما يقنعك بالتعقل من قبول المسؤولية، وفى كل الذين يبذلون لك العون لأنهم يتوقعون منك العون فى المستقبل . ...

يجب أن تبحث حتى تجده فى حياتك وتحدده ...

إذا كنت تريد القربى إلى الله لابد لك من ذبح إسماعيلك عند منى .

لاتختار الكبش (فدية) بنفسك، ولكن دع الله تعالى هو الذى يعينك ويمدك به هبة وجزاء ، لأن هذه هي الطريقة التي يتقبل الله بها الكبش أضحية..

فالفداء هو أن يقدم لك الكبش بديلاً عن إسماعيلك ..

أما أن تضحي بالكبش وأنت لاتنشد من وراء ذلك إلا الأضحية فهذه مجرد ذبيحة.

***

رموز التثليث
الأصنام الثلاثة

تذكر أن الأصنام الثلاثة في منى تمثل الشيطان الذى حاول أن يغوى إبراهيم .

هل بالضرورةعلى كل إنسان أن يخوض غمار تجارب ثلاث حتى يحرر نفسه من كل أنماط الاستعباد ؟!

إن الواجب يدعوه إلى نكران الذات حتى يهزم الحالة الحيوانية التي تجسدها عبادة الذات، ويرتفع إلى مقام إبراهيم جاعلاً كل عمله خالصاً لله.

ألا ترى أن هذه الأصنام الثلاثة تقف على النقيض من فصول الحج الأكبر الثلاثة؟

الجمرةالأولى : عدو عرفات

الجمرة الثانية : عدو المشعر

الجمرة الثالثة : عدو منى

أليست هذه الأصنام الثلاثة هى تمثيل لقوى الشيطان المتسلط والذى يرقد فى مكمن ويتربص بالإنسان الدوائر ليقطع الطريق إلي ملة إبراهيم؟!

ولكن ما الذي تفعله هذه الشياطين الثلاثة علي وجه التحديد؟

إنها تبدل وتمسخ الرسالة ..

فى صعود الإنسان نحو الوفاء بمسؤوليته تقوم قوى الشر ـ لتعوقه ـ بمهاجمته عبر ثغرة ضعفه ..

هناك دلالة أخرى تجعل معرفتنا بهذه الأصنام الثلاثة أفضل وهى :

الحقيقة التى يمثلها وجودها مستقلة عن بعضها، وكل منها له هوية خاصة به .. هويةمتميزة، ولكنها رغم ذلك مشدودة إلى بعضها بأواصر «الصداقة» والعمل المشترك ضدالإنسان..

وبعبارة أخرى : فإن الأصنام الثلاثة المفردة تمثل شيطانا واحداً .

الموجود أمامنا جوهر واحد بثلاثة أوجه، أو ثلاثة أوجه من أصل واحد ..

وهذا بالضبط هو معنى التثليث!..

توضيح الأمثلة الآتية هذا المفهوم :

في اليــهودية : تجد الأقانيم الثلاثة كما وصفها فيلون [1].

في المسـيحية : تجد الأب والابن والروح القدس.

في الهندوسية : تجد المينو ذو الأجزاء الثلاثة الرأس والجزع واليد.

في الفارســية : تجد أهورا مزدا والنيران الثلاثة التي تسمى فاشنسب، . واستخار، ونار زنمهر.. أي: المخلص، وظل الله ، وعلامة الله .

* * *

ما هو الشرك ؟

إنه الإيمان المؤسس علي شؤون الدنيا . وفقا للفلسفة المادية الاشتراكية العلمية [2] ..

إن الشـرك هو ذلك النظام القـائم على مـادية ذات بناء فـوقى متـوافق مع بناء تحتى هدفه إفساد الإنسان ووعيه الذاتي .

وهذه النظرية إن كانت صالحة للتطبيق على الشرك فلا يمكن تطبيقها على التـوحيد ؛ فمفهوم التوحيد يتناقض جذريا مع مفهوم الشرك ومن ثم فإنهما لا يمكن أن يقودا إلى أصل واحد أو أن يؤديا نفس الوظيفة ، وعبر التاريخ ظل الصراع قائما بين العقيدتين:

التوحيد ضد الشـرك .. إلا أنه وعبر تمثلهما الاجتماعي اختلط المفهومان ـ لسوء الحظ وتسنى للشرك أن يلبس قناعا للتوحيد ، ولأمد بعيد...

* * *

في الأصل كان ثالوث المسيحية توحيداً[3].

وبالمثل كانت الديانات الهندوسية والمزدكية ... كلها ترجع إلى إله واحد .

ومن الجـائز أن نجـد حجـة إذا قلنا أن التـوحـيد هو أصل كل العقـائد، ولكن التـاريخ وتأثيرات النظم الاجـتماعية قد أحدثت التـحول الفذ الجـماعي بالمجتمع الأول حتى صار

---

(١) فيلون : فيلسوف أوروبي .

(٢) أي الفلسفة الماركسية الفاشلة ، وللمؤلف عدة مباحث خصصها لنقد الفكر الماركسي. وهو هنا لا يخص الماركسية وحدها بالشرك ولكن كل مذهب يحارب الله أو يشرك معه آلهة أخرى كما سيلي .

(٣) وذلك كما علم السيد المسيح تلاميذه (المؤلف).

أجناسا مختلفة وطبقات مختلفة وأمماً مختلفة، ونتج عن ذلك تبدل التوحيد إلى الشرك .

لقد خلف آدم عليه السلام ابنان هما : قابيل وهابيل ...

هابيل هو ذلك المزارع المسكين الذى قتله أخوه الثري صاحب الأراضى، ومنذئذ لم يسمع أحد بموت قابيل !

هذا يعني أن آدم كان خليفته قابيل ذلك الكافر المغتصب البخيل القاتل .. ذلك الابن الذى لايستحق مثل هذا الأب .

وعبر التاريخ كان أبناء قابيل هم حكام البشرية حتى بعد أن تغيرت المجتمعات واتسعت وأصبح النظام أكثر تعقيدا وبعد أن نشأت التقسيمات والتصنيفات والتخصصات قام قابيل الحاكم أيضا بتبديل وجهه:

فى مجتمعاتنا المعاصرة يختفى وجه قابيل خلف السياسة والاقتصاد والدين .. فهو يحتفظ بقوته النافذة المتميزة فى هذه القواعد الثلاث.

لقد أسس قابيل قوى التسلط الثلاثة الكبرى وهى :

الطغيان .. الثروة .. النفاق

والتي تولد عنها :

القهر .. والاستغلال.. وفنون غسيل المخ .

هذه القوى الثلاث وصفت أحسن وصف فى دين التوحيد :

فرعون : رمز الطغيان

قارون : رمز المال

بلعم : رمز النفاق ...

أما الشرك فهو يعبر عن هذه المقامات الثلاثة فى نظامه ذى الأبعاد الثلاثة « التثليث» بالأب والابن والروح القدس .

إنهم يدعونك لتعبدهم من دون الله ..

لا تنس أنك فى مقام إبراهيم !

هم يريدونك أن تظل علي حب إسماعيلك حتى يجدوا ثغرة ينفذون منها ليخدعوك أو يربكوك أو يغتصبوك أو يبدلوا قيمك ورؤاك ومن ثم يقودوك إلى الضلالة .

* * *

أيها الحاج .. أنت الآن بمنى .. ارم ! لقد جئت بإسماعيلك إلى محل الفداء ..

كما رمي إبراهيم الأصنام الثلاثة وأسقطهم أرضا .. أنت يا من اتبعت إبراهيم وصرت جنديا فى جيش التوحيد حطم هذه الأصنام الثلاثة ..

عندما تشرق شمس اليوم العاشر من ذى الحجة انطلق مع بقية الجيش وعليك ملابس الإحرام .. استيقظ فى المشعر الحرام واعبر حدود منى ، وفى أثناء الهجوم الأول ارم الصنم الأخير .. إنه الأخير الذى ينبغى أن يرجم فى البداية ...

فرعون ..

قارون ..

بلعم ..

إنها الأشكال الثلاثة المكونة لقوة قابيل .. إنها وجوه الشيطان الثلاثة ورمز التثليث

اضرب فرعون: ذلك معناه ﴿إن الحكم إلا لله﴾

اضرب قارون: ذلك معناه (**المال مال الله**)

اضرب بلعم: ذلك معناه ﴿إن الدين كله لله﴾

اعلم أن الناس إنما هم خلفاء الله فى الأرض وأنهم «عيال الله» وأن ميراث هذا العالم سيؤول للمتقين وحدهم :

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (١).

وإن مسؤولية الفرد ليست قاصرة على مايفعله فحسب، وإنما أيضا عما يفعله الآخرون:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ (٢)

***

إنك قد تسأل : أيّ هذه الأصنام الثلاثة يمثل فرعون رمز الطغيان؟ ..

وأيهم يمثل قارون رأس المال ورمز الرأسمالية ؟ ..

وأيهم يمثل بلعم رمز النفاق ؟ ..

إن كل من يحمل فى صدره الوعي الإبراهيمى سيصدر عن تصوره الخاص فى تحديد ذلك ، وعن مناهجه التي يطرحها للتغيير الاجتماعى ، وعن مسؤوليته القائمة على الظرف

(١) الحجرات : ١٣ .
(٢) البقر: ٢٥١.

السياسى الاجتماعى الذى يعيش فيه مجتمعه..

قد يعتبر الصنم الأخير هو:

فرعون .. لأولئك الذين يهتمون بالسياسة ويعيشون تحت وطأة القهر والحكم العسكري والفاشية .

قارون .. لأولئك الذين يهتمون بالاقتصاد وينظرون إليه باعتباره البناء الذى أسس عليه المجتمع .

بلعم .. لأولئك المثقفين الذين يعتقدون أن التغيير الاجتماعى لايمكن أن يقع إلا إذا قام كفاح أصيل ضد الجهل، وضد بؤس العقل، وضد كل مايجعل الناس يتعلقون بأنماط الشرك التي تتخفى تحت غطاء التوحيد .

فى رحلتى الأولى والثانية إلى الحج كنت أعتبر أن الصنم الأخير هو بلعم ، وكانت رصاصتى تنطلق بهذه النية ، وخاصة عندما وجدت أن ذلك يتفق مع ماجاءفى الآيةالكريمة:

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾. (١) .

إن الله تعالى يدين الطغيان والجهل والنفاق، ويكشف أولئك الذين يدعون «قادة روحيين» بينما هم– بوعي منهم أو دون وعي – يضلون الناس بدلاً عن هدايتهم..

إن الله غاضب عليهم؛ اذ يقول عنهم:

﴿كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾(٢)

ويقول عنهم أيضاً:

﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾(٣).

هنا ك دليل آخر على نيتي، وهو تلك الكلمات القوية التي خاطبنا بها الله سبحانه في سورة الناس آخر سور القرآن الكريم ..

فى هذه الآيات يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ وهوالذى أنيطت به مسؤولية القيادة العظمى لمسيرة الإنسانية الحرة .. ومع ذلك يحذره الله تعالى من ثلاثة مخاطر ليس هو

---

(١) التوبة : ٣١. (٢) الجمعة: ٥.
(٣) الأعراف: ١٧٦.

بمأمن منها، ومن ثم فلا بد له أن ينشد «الملاذ» عند الله ....

فى تلك السورة اختص الله تعالى ذاته بأسماء ثلاثة؟

الرب .. الملك .. الإله

وهى نفس الخصائص الثلاث التى يجهد الشيطان دائما فى خلعها عليه ولكن فى هذه الآيات نجدها من صفات الله تعالى وحده ...

وها هو إنسان مثل النبى محمد ﷺ يُرْشَد إلى نشدان الملاذ عند : الرب الملك الإله. ما الذى ينبغى أن يحتمى منه الرسول صلى الله عليه وسلم؟...

إنه خطر الخناس: **﴿من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس﴾**[1].

فى منى - حيث حاول الشيطان إغواء إبراهيم - فإن الصنم يمثل «الخناس» الذي يقوم مقام القيادة الروحية ويبيع إيمانه مقابل الثروة والمال وهو كذلك الذى يبيع معرفته أو ذكاءه العلمى !

القرآن الكريم يشير بوضوح إلى أن ما فعلته هذه الفئة من الناس هو أشد ما عرفه التاريخ البشرى من تدمير وتفتيت لعري الوحدة الإنسانية وتضليل الآدميين وإذكاء لأوار الفتنة العنصرية، حيث كان الناس - من قبل - أمة واحدة تعيش فى كنف السلام والتكافل..

وهى نفس الفئة التي تزعم أنها المسؤولة عن الحكمة والقيادة الروحية للناس، وبينما هم يدركون تماما ما تحمله نفوسهم من حسد للآخرين وحقد وقسوة عليهم وخيانة لهم : **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلفت فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾**[2].

* * *

لكن ....

---

(١) الناس : ٤،٥.   (٢) البقرة: ٢١٣

الحج له دلالات أكبر بكثير مما يمكن أن يستوعب عقلى ويتفهمه.

كل مرة أذهب فيها إلى الحج أشعر أن معرفتى قد ازدادت وأن رحلتى التالية ستكون تكراراً لما عرفت ..

لكن .. لدهشتى فإن توقعى لا يصدق ..

وأنت أيها القارىء العزيز لاتحسبن أن ماقلته لك هو كل ماستتعلمه من تجربتك مع الحج أو أثناء أداء المناسك ..

كلا ، كلا ، كلا!!

إن هذا ليس كتاباً يصف لك شعائر الحج .. بل هو مجرد مثيرات لتجعلك تفكر .

هذا الكتاب هونتاج قدرتى المحدودة على التحليل والتلخيص لعرض رمزي معجز، حيث أن المهيمن على خشبة العرض هو المهيمن على الكون الكبير .

بوضوح: لقد حاولت أن أصب البحر فى إناء !!!

فى كل مرة أذهب فيها إلى الحج أحاول أن أُقَيِّمَ بعض ما استنبطه من مرتى السابقة ، وذلك حتى أستكمل تفسيراتى ، ولكنى أكتشف مع ذلك فصولا جديدة وعبرا جديدة..

فى المرة الأخيرة التي ذهبت فيها للحج كنت أسائل نفسى : (لماذا أحاول أن أحدد مالم يحدده مدبر العرض ؟!

هل من الضرورة أن أعرف كل صنم ؟

لقد فعل ذلك مدبر العرض؛ إن غياب التعريف هو فى حد ذاته تعريف .

أليس صحيحا أن الأصنام الثلاثة تمثل واحداً بينما كل منها على حده يمثل ثلاثة؟

إن تمييز الأصنام الثلاثة يحدد القوى الثلاثة المرتبطة ببعضها، وإن غياب الهوية يدل على أن أى واحد منها يختفى فى داخله الأثنان الآخران، ومن ثم حين ترمى أحدهم اجعل نيتك رميهم جميعا...)

لكن بعد كل ذلك فإننا بعقولنا البسيطة وعبر تفسير أهل الذكر من الناس كل مرتكز على حقله المعرفى واهتماماته ـ تجدنا نلجأ دائما إلى التصنيفات من قبيل : الاجتماعى ، والفلسفى ، والتاريخى ، والنفسى..

أما مشرع الحج– سبحانه– الذى يعلم أنه ما من ثقافة أو حضارة فى أى حقبة من الزمان وعبر أى نظام أو بنية اجتماعية أو طبقة أو علاقات اجتماعية ، فإن كل واحدة من

القوى الثلاث تكون فى موقع سدة الحكم بينهما القوتان الأخرتان يدعمنها. وعندما ترمى واحدة تفتح الأبواب للنصر وتبدأ احتفالك بالعيد!..

إذن عندما تبلغ منى محملاً بذخيرتك عليك أن تهاجم وتقتل الصنم الأخير..

بغض النظر عن المكان الذى أتيت منه: من مجتمعات رأسماليه متقدمة .. أو مجتمعات عتيقة مظلمة متخلفة .. أو أنظمة فاشية ديكتاتورية .. أو مجتمعات حكم الفرد..فإنكم جميعا ترمون نفس الصنم، . لكن النوايا تختلف وتتعدد!

الصنم الأخير يدعم الصنمين الآخرين ..

فرعون يعطى المشروعية للنهب الذى يزاوله قارون ..

قارون يدعم بلعم بماله ..

فرعون يدعم بلعم بسلطانه ..

بلعم يقوم بربط سلطة فرعون بالقوة الإلهية المطلقة ..

تماما كما نفعل حينما تتشابك أيدينا حتى يجد كل منا السند لنفسه وفى نفس الوقت ندعم بعضنا البعض..!

وهكذا ليس مهما من أى مكان جئت ، ولا إلى أى نظام تنتمى مادمت فى مقام إبراهيم وتتحمل مسؤوليته، ونيتك متوجهة لضرب الأصنام الثلاثة ..

ارم الصنم الأخير وبذلك تنتصر على قاعدة الشيطان وتبطل إغواءه..

إذن !هل رميت الصنم الأخير ؟

وفى وجهه ؟

وعلى رأسه ؟

هل اخترقته الرصاصة ؟

سبع رصاصات ؟

سبع مرات ترمز إلى أيام الخلق السبعة، و إلى السموات السبع، وأيام الأسبوع السبعة (جهاد ماض إلى الأبد منذ أن بدأ مع بدء الخليقة متصلا إلى يوم القيامة، ومعركة لا يتخللها هدنة ولن تقوم خلالها علاقة سلم مع أى من الأصنام الثلاثة .. كن كأنك دائما فى منى وفى حالة حرب مع الأوثان).

ياإبراهيم، عندما يسقط الصنم الأخير يتعطل الشيطان ويقتل تحت وابل رصاصك ! أيها

الإنسان .. ياخليفة الله فى الأرض، لقد طردت الشيطان كما فعل الله ! وهزمت المَلَكَ[1] الوحيد الذى رفض السجود للإنسان ..

الآن أنت إنسان حر مثل إبراهيم، وأصغيت للرسالة ، وأدركت الحقيقة .. وبعد أن ترمى الصنم الأخير ضح بإسماعيلك ..

من أجل الحق وفى سبيل الحب. كل شيء يمكن أن يضحى به ...تقدم إلى محل الأضحية بقلب يملأ ه الحب ..

ولتتبع إبراهيم..

خذ إسماعيل بيد (كائنا من كان أو كائنا ماكان .. فهو ذلك الذى يقع لديك موقع إسماعيل لدى إبراهيم) واقبض باليد الأخرى على «سيف إيمانك» الذى ستقطع به عنق إسماعيل أمام عينيك ..

تجاوز كل شيء، وانشد عون الله فيما أنت مقدم عليه بكل وعيك وإدراكك وكامل يقظتك وانتباهك .

أيها الإنسان !...

من أجل الحب والحق ضع بإسماعيلك وبكبش فداء فى أرض منى !..

إن الله تعالى ليس متعطشا للدماء فى مذبح منى وليس فى حاجة إلى إسماعيلك [2] ، بل سوف يرسل لك الكبش فدية...

لقد جيء بك من ركن بيتك إلى بحيرة الدماء فى مذبح منى لتعبر وتهاجم وتقتل رموز الشيطان وأنت تضحى .

وحينما تكون على استعداد للتضحية بإسماعيلك فى سبيل الله تنتصر على الشيطان، وسوف يسلم إسماعيلك ويقف فخورا إلى جانبك ...

عجباً !.........

مثل هذا الدرس العظيم يتلقاه الإنسان فى شعاب هذه الجبال ..

لقد فعلت مافعله إبراهيم وصار إسماعيلك معك ، أماما ضحيت به فهو حبه وهو ذاته الذى أغواك به الشيطان. ..

---

(١) هناك من يري أن الشيطان (إبليس) كان من الجن العابد فرفعه الله إلي مصاف الملائكة (المراجع)

(٢) يقول تعالى : ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ الحج : ٣٧ (المراجع).

فإسماعيل هبة من الله، والله يحبه، وسيدفع فديته!..

عندما تعود من منى لاتنس أن تكون وفيا لعهد السير على سنة إبراهيم وقبول مسؤولية الدعوة إلى الرسالة .. اذهب إلى شعبك ونادى فيهم ليأسسوا أرض السلام ، و يعيشوا فى مجتمع السلام، ويبنوا بيتا هو رمز الأمن والسلام والحرية والمساواة والحب ...للإنسان!!

***

العيـــــــد

لقد اكتملت المشاهد والحج على وشك الانتهاء !

أين ؟! .. في منى ؟!

ياللدهشة! .. على مرمى حجر من مكة؟!...

لماذا ينتهى الحج هنا بدلاً من أن ينتهى هناك فى مكة إلى جوار الكعبة ؟!

يجب أن تدرك مغزى مناسك الحج، وتكون على وعى تام بما تفعله وأنت فى خضم هذا الزحام ... يجب أن تكون قادراً على التفكير هنا وليس هناك فى ركن بيتك وأنت هائم فى أحلام اليقظة !

الحج هو كل مايحض على التماسك.

الحج هو البقعة التى تلقى فيها الله وإبراهيم ومحمد .. والناس.

خليطٌ مجتمعٌ من العديد من الأعراق والأجناس والألسنة والأنظمة ..

ومع ذلك تجد هذه الثلة منسجمة متآلفة ومتناغمة ثقافيا وعقيديا وغاية وحباً!..

إنهم ليسوا مجموعة منتقاة من أصحاب السلطة أو من طبقة اجتماعية معينة، إنهم أنماط منحدرة من كل أنواع الأجناس والطبقات والطوائف ..

إنهم هنا تجمع له مشكلاته المحددة هى– على وجه العموم - واحدة وإن تعددت ؛ فهم الممثلون الحقيقيون لأمم مختلفة يلتقون هنا .

* * *

«الاستطاعة» فى الحج تعنى قدرتك على الذهاب وعلى فعل ماسبق أن فصلنا فيه القول، وليس معناها أن تكون غنيا كما شاع فى الفهم الخاطىء..

إن الحج ليس ضريبة على الثروة ولكنه واجب مثل الصلاة ..

إن معنى استطاعتك هو أن تكون قادراً وعندك من الحكمة ما يجعلك تدرك ما الذى تفعله .. إنها نفس الشروط التى يجب توفرها لأداء أى واجب !..

***

أيام أخر فى منى

مازال أمامك يومان تبقى فيهما بمنى .

أمعن التفكر فيهما فى عقيدتك ، وفيما فرغت لتوك من أدائه..

بحلول العيد وبعد الأضحية تنتهى المناسك ..

لكن لابد أن تبقى فى منى يومين، أوثلاثة أيام- إن كان فى مقدورك- لاتغادرها، ولا حتى لتعود إلى مكة ! لماذا ؟! لقد انهزم الشيطان، وقدم القربان، وخلع الإحرام، واحتفلنا بالعيد ! لماذا يجب أن يبقى أكثر من مليون من البشر[1] فى هذا الوادى ليومين أو ثلاثة؟!.. فى هذا الوقت يتاح لهم أن يتفكروا فى الحج، ويتفهموا ما فعلوه..

وبإمكانهم - كذلك- تداول مشاكلهم مع المسلمين القادمين من بقاع شتى من المعمورة، فهو مؤتمر إسلامى عام يضم المؤمنين ليقرروا ما يصلح دينهم ودنياهم ..

إن مفكرى الإسلام ومثقفيه الذين يجتمعون هنا، والمجاهدين فى سبيل الحرية ضد الاستعمار والطغيان والفقر والجهل والفساد فى بلادهم يتعرفون على بعضهم ويتداولون مشكلاتهم ويصلون لبعض الحلول ويشدون أزر بعضهم بعضا متعاونين متساندين.

إن عليهم أن يدرسوا المخاطر التي تحدق بالأمة ووسائل مقاومة المؤامرات التي تحيكها القوى العظمى وعملاؤها المندسون داخل البلدان الإسلامية.

إن عليهم أن يعقدوا العزم على محاربة الاستغفال والإعلام والتفرق والضلال والمذاهب الهدامة وأمراض أخرى كثيرة تهدد كيان الأمة ..

إن عليهم أن يرفعوا راية الجهاد العام خفاقة فى أرجاء العالم من أجل تقديم حقائق الإسلام ومساندة قضية الحرية لكل الشعوب المستعبدة، ومن قبلها لتلك الأقليات المسلمة التي تعانى الاضطهاد من أنظمة غاشمة جائرة ...

وعبر هذا النسق من التعاون وتبادل الرأى والشعور تكتسب الأمة المسلمة مزيدا من

---

(١) تضاعف هذا الرقم الآن (المراجع) .

القوة فى جهادها ضد عدوها المشترك ...

إن فهما أفضل لعقيدة الإسلام قد ينبثق عندما تحل بعض الخلافات العقدية بين الطوائف المذهبية للمسلمين[1] .

* **

أكثر من مليون مسلم من كل فجاج الأرض يبقون ثلاثة أيام فى منى ذلك الوادى القفر؛ حيث لاتجد مكانا يجذب الناظر أو يشغل وقته بممارسة أى فعل أو لشراء شيء، ليس به حتى ميدان أو حديقة تتجول فيها، كما أنه ليس مكانا للسكنى ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : «لابناء فى منى »..

فى لحظات البقاء هذه يكتسب المرء - عبر مرانه خلال مامربه في رحلة الحج - حرية إرادته من كل سند وتدعيمها بإرادة إبراهيم القوية وشخصيته العظيمة ..

لقد هزمت كل المخاوف والأطماع والغرائز فى ذروة من توهج قوة الإرادة والشعور بالمسؤولية ، والقلب يملأه إحساس الانتصار في الميقات والطواف والسعى وفى عرفات وعند المشعر الحرام ومنى : الرمى ، والأضحية، والاحتفال بالعيد فى إخلاص عظيم.

نعم .. فى هذا الوقت وعلى هذه الأرض أكثر من مليون مسلم لا يختمون الحج- متفرقين كي يستأنفوا حياتهم الخاصة - كلا !.. بل يجلسون مجتمعين فى هذه البقعة يتداولون حول مشكلاتهم ومستقبلهم .

فالحج هو أن تأتى هنا فى الميقات المحدد، وأن تؤدى هذه المناسك مع الناس، أما غير ذلك - كأن تذهب إلى كل أماكن الحج فى ميقات الحج وليس معك أحد - فليس هذا بالحج.، بل هو سلوك لامعنى له ! .. وقد يعتبر جولة سياحية !!..

ولكن هذا الوقت - الذى يوجد فيه الناس - هو الوقت الذى يعبقه المناخ الروحى ، أما غدا - عندما يرحل الجميع -تعود منى مرة أخرى مثل كل البقاع لا يميزها عن غيرها إلا أنها جدباء قفر من السكان .

إنك هنا لتتعلم أنه : «دون الناس » فإن السعى للجنة لا يعدو أن يكون إحدى طرائق الرهبنة المستقبحة، وأن : انتظار العائد المادى المؤجل أسوأ من دفعه لك فى الحال؛ لأنه

---

(١) يقصد بين السنة و الشيعة خاصة . (المراجع) .

الطمع الذى يحتفظ بشراهته إلى يوم القيامة .

وبكلمات أخرى : إنه نفس سلوك البرجوازى الذى يفضل التأجيل على أن يدفع له فى الحال لأنه يضمن له رصيدا أكبر .

والمنقطع أنانى مثل المادى ، فالأخير يستعمل تقنياته، والأول يستعمل إيمانه... المادى ينتفع بالعلم ليستمتع بحياته ، والمنقطع يستعمل الإله لتلك الغاية ..

كلاهما يسعى لنفس الهدف، لكن أحدهما ينتظره لحاضره والآخر لآخرته.

لكن إسلام إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ يعلمنا أن الله سبحانه يكره المنقطع الأنانى :

«من بات لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم »

صحيح أنك أديت فريضة الحج وسموت إلى مقام إبراهيم عندما ذبحت إسماعيلك ، لكن هذه ليست نهاية المطاف بقدر ماهى بداية واجبك ..

كل هذه المناسك إنما كانت لتنكر «خدمة الذات»ولتنتقل «لخدمة الآخرين»، ليس من أجل ذلك دعيت إلى هنا أثناء موسم الحج لتكون مع الناس .. أما أن تأتى هنا وحدك فليس هذا بالحج.

* * *

الآن ....

فى خاتمة هذا الأداء ......

والجميع قد هزم الشيطان– كما فعل إبراهيم– وذبحوا الذاتية واحتفلوا بالنصر وقبل العودة إلي مكة للوداع .. يجب الوفاء بأمرين واجبين :

* أن يؤسسوا حلقة حوار علمي ونظرى «سيمنار» حيث يتاح لكل شخص أن يحضر.
* وأن يقيموا مؤتمرا عالميا شاملاً.

اليومان الزائدان فى منى هما من أجل أن يختصر الحج فى هذه المؤتمرات التي لاتنعقد خلف الأبواب المغلقة وداخل القاعات المضاءة، ولكن فى الهواء الطلق فى هذا الوادى،حيث لا يوجد سقف يقترب من الرؤوس، ولكن تحت سماء زرقاء صافية بلا جدران ولا مداخل ولا حدود ولا حرس .. ولا مراسم !..

هذه المؤتمرات لا يحتشد فيها رؤساء الدول ولا ممثلوهم ولا الدبلوماسيون ولا

القيادات السياسية ولا أعضاء البرلمان ولا الوزراء ولا أعضاء مجلس الشيوخ ولا أساتذة الجامعات ولا العلماء ولا المفكرون ولا أئمة الدين ... كلا! كلا!

﴿وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾(1).

كما يقول إيمى سيزار: (ليس لأحد الحق فى أن يكون قيما على الآخرين)

وكما يقول بروفيسور شاندل : (إن الحديث باسم الآخرين وهم غائبون كذب وعار، إذ أن الله وحده له الحق فى التقرير للناس لأنهم خلفاؤه فى الأرض)

هذا هو الغرض من المؤتمر الذى يعقد فى منى، حيث القيم هو الله تعالى الذى يجتمع الناس هنا في ضيافته ...

بعد هزيمة الشيطان والعودة من محل الهدى يدعو الله تعالى الجميع ليشهدوا هذا اللقاء، وليجددوا وعدهم مع إبراهيم ، وليكون الله شهيدا على بذل الوسع فى دعم عقيدة التوحيد وتحطيم كل الأصنام الباقية فى العالم وتأسيس مجتمع العدل والسلام .

إنهم الأتباع الصادقون للنبى محمد ﷺ الذى صنع أولئك البشر المفكرين الواعين الذى حملوا مسؤولية الرسالة، وشيدوا المجتمع النموذجي والأمة الشاهدة على قاعدة التوحيد ، وساندوا أمانة الحكمة والإمامة والقسط فى حياة الناس .

منى هى أرض الحب والجهاد والشهادة..

منى هى المكان الذى يتواثق فيه الناس مع الله ...

إنهم أمة واحدة تتعاهد على فعل الخير ومقاومة الشر فى حياة الناس وعلي تلبية نداء الرسول ﷺ الذى حمل كتاب الله بيد والسيف باليد الأخرى متخذا القرار الصائب بمواجهة العدو العنيد والتحالف مع الأصدقاء

في هذا المؤتمر المنعقد بعيداً عن أقطار تغمر أراضيها دماء القتلى ، يدعو رب الناس ملك الناس إله الناس .. يدعو المسلمين من كل فجاج الأرض، ومن مختلف النظم السياسية ليجتمعوا تحت أديم سماء هذه الجبال فى حديث حر ينشد التعاون للقضاء على مشكلاتهم .. وهو أيضا اجتماع علمى ، لكنه لا ينعقد فى قاعات: أكاديمية ، ولا يشبه تلك الملتقيات المتكلفة لأساتذة الجامعات وحلقات العلماء وأصحاب التخصصات العالية .

---

(١) الحج :٢٧

كلا ... إنهما يومان تنعقد فيهما حلقة الحوار العلمى«سيمينار» روحى وفكرى حيث يشارك فيه أى متعلم أو أمى، أستاذ كرسى أو حرفى، قائد روحى أو مزارع بسيط، .... كل من يريد المشاركة له حق الحوار المفتوح .. كل الرتب وكل المواقع وكل الدرجات وكل الألوان، فقد تركوا الفوارق خلف ظهورهم عند المواقيت!..

هنا الجميع يمثل واحداً... الإنسان

والكل له ذات الدرجة (حاج!).. هذا هو كل ما فى الأمر

* * *

لايوجد فى مستويات الرقى البشرية مستوى أرفع من مقام إبراهيم الذى يُطلَب من الجميع هنا أن يتمثلوا دوره ...

ومع نهاية هذه المناسك وقبل أن تعود إلى وطنك يجب أن تبقى يومين آخرين فى منى بعد العيد مع الناس.. تجلسون وتسألون فيهما أنفسكم ذات السؤال العظيم الخالد:

ما الذي يجب علينا أن نفعله من أجل مجتمعنا ؟؟

وعليكم لكى تهتدوا للإجابة أن يجلس كل واحد ويفكر فيما قام به أثناء الحج.

* * *

إجمال

الآن دعنا نجمل ماتعنيه بعض المصطلحات التي يجب علينا أن ندرك جوهرها فيما نقوم به من مناسك الحج :

التصوف : يبدأ في منى ويبقى هناك إلى الأبدولا يعبر إلى عرفات أو المشعر الحرام .

الفلسفة : تأتي إلى المشعر ولكنها لاتبلغ منى .

المدنية : تبقى في عرفات ولا تصل المشعر الحرام أو منى .

الإسلام : يبدأ من عرفات في رحلة مليئة بالمسؤولية والحركة ويواصل إلى مني في رحلة المثل والحب واللقاءات المدهشة مع الله ثم الشيطان !..

* * *

هنا يتحدثون عنك أنت وعن مصيرك وليس عن موجودات العالم الأخرى ...

فالله تعالى الذى يملك كل موجودات هذا الكون يتحدث هنا عن الإنسان الذى يضم بين جنبيه النفخة الربانية والطين اللازب أو الحمإ المنسون..

هذه الثنائية موجودة في الإنسان ، ولكنها لاتقوم في الطبيعة ..

إن منى هى أرض الحب والإيمان والمستقبل، فحينما يصطرع فى داخلك نوازع الخير الربانية وهمزات الشيطان ووساوسه من أجل إسماعيلك تكون منى هى أرض آمالك ورغباتك.

ولكن تكون دهشتك حين يأتي يوم نصرك فى يوم العيد الدامى، وبدلاً من حفل عيد الميلاد هناك حفل الفداء من أجل الابن!

إنه عيد الفداء....انظر إلى قيم هذه الأمة وما ينبثق عنها من أعراف وتقاليد وتاريخ وألقاب إنها لا تعبأ بعلاقة الدم أو الأرض، ولكنها تعول على العقيدة والجهاد؛ فهى أمة التوحيد التي تحمل مسؤولية حرية البشرية من لدن آدم عليه السلام وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ..

إن أبناءها هم جند الإيمان الذين يجاهدون ـ حتى نفوسهم ـ وقد امتدوا على طول جبهة القتال من بدر إلى منى ..

إنهم العبيد الذين أدركوا بعمق معنى الحرية !..
لقد حرروا أنفسهم ليس من فرعون فحسب، ولكن من إسماعيلهم أيضا..
لقد حرروا أنفسهم ليس من الأعداء فقط، ولكن من ذوى القربى كذلك ...

***

الهجوم التالى المترتب على العيد

أثناء الهجوم الأول الذى قمت به فى اليوم الأول عمدت إلى ضرب الصنم الأخير وأفسحت الطريق إلى محل الفداء، ثم تحللت من ثياب الإحرام واحتفلت مبتهجا بانتصارك!..

فى اليوم التالى لابد أن تعود إلى الرمى مرة أخرى ، لكن عليك أن ترمى ثلاثتهم جميعا.....

فى هذه المرة تدور راجعا لتضرب الصنم الأول بادئاً به، ثم الثانى ، وفى النهاية ترمي الصنم الأخير.

يومك الثالث هو تكرار لما فعلته فى يومك الثانى ..

فى اليوم الرابع قد تبقى بمنى وقد تغادرها، فإذا قررت البقاء فيجب عليك عندئذ ـ أن تعود للرمى كما كنت تفعل فى يومك الثانى والثالث، وإذا قررت ألا تبقى إلى اليوم الرابع فعليك عندئذ أن تدفن بقايا سلاحك فى مكان ما تحت أرض منى .. هذا واجب[1] !

* * *

هذه الأيام التي تلى العيد تسمى أيام التشريق.....

ما الذى تعنيه ؟

فى اليوم العاشر من ذى الحجة تكون قد ارتقيت إلى مقام إبراهيم وبلغت من الشجاعة ما جعلك تضحى بإسماعيلك، وهزمت الشيطان فى قاعدته الأخيرة ساعة هجومك الأول، وتقدمت بالقربان، ثم تحللت من الإحرام ، وغدوت من جبهة القتال فى منى منتصراً..

لماذا إذن تواصل القتال؟!

هناك درس آخر: لاتنس أن الشيطان باق حتى بعد أن يهزم ..

كل ثورة مهما يكن مقدار نجاحها هي على خطر من «أعداء الثورة»..

إن الأفاعى الهامدة قد تستيقظ وتبدل ألوانها وأنت فرح بانتصارك وفخور بقوتك أو

---

(١) لم أجد لهذا أصل فى كتب الفقه (المراجع).

مستغرق فى احتفالاتك !..

إنها قد تتظاهر بأنها صديقتك حتى يتسنى لها الانضمام إلى صفك لتحطم حركتك من الداخل وتقطف ثمار ثورتك، ومن ثم تصبح هذه الأفاعى (أعداء الثورة) الوارثين جند العقيدة واللابسين شارة الحداد والحزن على الشهداء ..

إن النصر ينبغى ألا يجعلك تخلد إلي الاسترخاء ..

لذا بعد أن تهزم الشيطان فى منى لاتلقى بسلاحك من يدك ؛

لقد قهرت الشيطان حتى أخرجته من بابك ولكنه قد يعود إليك من النافذة!..

لقد هزم فى خارجك لكنه قد يستيقظ فى دواخلك ..

لقد صرع فى الحرب لكنه قد يستحوذ على السلطة فى السلم . .

لقد هلك فى منى لكنه قد يبعث فيك !. . .

ما الذى أقول ؟!..

الإغواء له آلاف الوجوه ....

فالشيطان قد ينبذ لأنه كافر، لكنه يعود فى هيئة رجل شديد الإيمان ..

وقد يطرد لأنه مشرك لكنه يتمثل فى ثياب التوحيد...

قد تدفنه فى بيت الأوثان لكنك تلقاه منتصبا أمامك على المنبر ..

قد تقتله فى بدر لكنه يعود فى كربلاء...

قد يطعن فى غزوة الخندق بالمدينة لكنه يظهر فى مسجد الكوفة ...

قد تمسك بيدى الصنم هبل فى أُحد لكنه سيرفع المصاحف على أسنة الرماح فى صفين[1] .

يجب ألا تكون ساذجا وتظن أن الحرب قد انتهت عندما هزمت الشيطان فى اليوم العاشر من ذى الحجة بمنى ، ومن ثم تخلع عنك زى الحرب وترتدى ثيابك المدنية وتعود إلى الزينة والعطر، وتحتفل بانتصارك ، وتتجاهل الخطر، وتستشعر أنك حرلتغادر منى إلى مكة مستغرقا فى العبادة أو الاستعداد للعودة إلى ديارك لتستأنف أعمالك من جديد.

---

(١) واضح استدلالات المؤلف التي تعبر عن موقف الشيعة من قضايا سياسية تاريخية قد نتفق معه فى بعضها أو نختلف. (المراجع)

أنت ...!

ياجندى الإيمان السائر على درب إبراهيم لاتنس أن العاشر من ذى الحجة هو «عيد الفداء»وليس «عيد النصر» !...

إن التضحية بإسماعيل هي بداية الحج وليست نهايته!..

بعد نجاح «الثورة» ياجنود التوحيد لاتلقوا بأسلحتكم جانبا،ولا تستغرقوا فى نشوة النصر أكثر مما يجب.

إن هناك خطر دائم داهم من الجيش المهزوم ..

لقد أطيح بالقواعد الثلاثة، لكن الأصنام الثلاثة ضاربة بأطنابها فى منى ..

بعد العيد ينبغى أن تحتفظ بروح البطولة وتظل مستعدا للقتال فى أى وقت..

وعليك - بمعونة بقية الجنود - أن تعدوا معا خطة محكمة التوقيت ومضبوطة الخطواط للقضاء على تلكم المؤسسات واضعين فى اعتباركم الحقائق التالية :

* الثورة دائما فى خطر بما فى ذلك أكثرها نجاحا . .

* لاتكن فخوراً حتى بعد أعظم الانتصارات ..

* ماتزال فى خطر حتى لو كنت إبراهيم نفسه، وحتى بعد أن تضحى بإسماعيلك ..

الشيطان له أوجه عديدة وأقنعة لا حصر لها وحيلاً مثل الأقنعة ..

لقد حاول خداعك مرة بحياة إسماعيل، واليوم قد تنخدع له بفخر التضحية به !

كن دائما مستعدا للقتال ولرمى الجمرات !

مادمت فى منى ارم رصاصاتك على الأصنام ..

إن منى هى أرض الإيمان والحب، ومكان آمالك وحاجاتك ، وهى جبهة كل أمجادك وانتصاراتك الكبيرة، وهى حجك وذروة كمالك ومثال حياتك..

إن منى هى الخطوة الأولى نحو التوحيد، وفى نفس الوقت الكمين الذى يتربص فيه الشيطان ألد أعداء الإنسان ...!

أنت دائما فى منى أو منى دائما فيك !

أنت دائما فى خطر مادامت الطواغيت مستعدة دائما للتمرد.

بعد العيد وأثناء بقائك فى منى ارم الأصنام كل يوم ...

* * *

* كن دائما مستعداً للجهاد فى سبيل الإيمان والحرية طول عمرك ..
* الجهاد فى سبيل الإيمان لايكون من أجل أن تحكم أو تستحوذ على السلطة ..
* بهزيمة العدو لاينتهى جهادك ..
* احتفل بعيد الفداء لابالنصر..
* اخلع زى الحرب، لكن لا تلقى سلاحك ..
* النصر قد يتحقق يوما لكنه يوشك أن يضيع بالإهمال ..
* قد تكفى رمية واحدة لهزيمةالعدو، لكن عليك أن ترميه بسبعة لكى تتأكد أنه مات.
* قد يكفى هجوم واحد وسبعة رميات لتستولى على قاعدة العدو، لكن حتى تقضى عليها تماما تحتاج لأكثر من هجوم وترمى أكثر من سبعين رمية ...
* اطرح السلاح «الحصى» الذى جمعته فى المشعر للقسمة..
كم معك؟
سبعون
هنا أيضا «سبعة» و «سبعون» !
فى اليوم الأول (العاشر من ذى الحجة) يهاجم الصنم الأخير بسبع طلقات.. وفى اليوم الثانى والثالث ثلاث هجمات وسبع طلقات لكل صنم:
ستة مرات × ٧ حصيات = اثنتان وأربعون حصاة+سبعة فى اليوم الأول الحاصل يكتمل بتسعة وأربعين طلقة أي رقم فردى !
الهجوم الأخير فى اليوم الرابع (الثالث عشر من ذى الحجة) اختيارى..
إن لك فيه الخيار كما تشاء...
إذا كنت لاتزال تستشعر الخطر فلك أن تبقى ويجب عليك عندئذ أن ترمى مثلما فعلت فى اليومين السابقين.
وبهذا يكتمل عدد مارميت سبعين حصاة :
تسعة وأربعون حصاة + واحد وعشرون حصاة = سبعين حصاة.
من أجل أن يمنع الشرك من التنكر فى ثياب التوحيد عليك أن تجاهد ثلاثة وعشرين عاما وتهزم الكفر وتحطم أوثان الأرستقراطية وتنتصر على جاهلية قريش ..
ويجب عليك أن تحطم القواعد الثلاث المتمثلة فى : الاستعمار والرأسمالية والنفاق

والتى هزمت– من قبل– فى بدر وأحد والخندق ..

وعليك أن تقضى على الصنم الأخير فى مائتى عام من عمر الإمامة..

وأخيراً لكى تمنع الخناس الذى انهزم في الجانب الآخر من الخندق استدر تلقاء الصف المنتصر وتسلم القيادة الإسلامية حتى وإن احتفلت بانتصار السقيفة، فإن المقتول سينتقم فى كربلاء وينشر دماء آل النبى على ضفة نهر الفرات..

وما أكثر الظلم الذي اقترف باسم الخلافة .

***

الرسالة الأخيرة

إن أفعال الحج هى نقل لتلك الرسالة التي حملها لنا القرآن بالكلمات..

قبل أن تشرع فى الحج ينصح بأن تقرأ القرآن ـ على الأقل– مرة واحدة، وأن تتعلم درساً من سورته الأخيرة ...

لماذا السورة الأخيرة ؟!

إن آيات السورة الأخيرة تحذر من الخطر، بينما آخر أفعال الحج هو الرمى ..

فى خاتمة الحج أنت مقدم على رمي الأصنام الثلاثة، بينما خاتمة القرآن تنكر القوى الثلاث.

فى المرحلة الأخيرة من الحج يُحذِّر المسلم من الخطر، بينما تحذرنا السورة الأخيرة من الشر .. ياللغرابة !!..

إن القرآن يأتى إلى نهاية، بينما الشر لا يأتى إلى نهاية ..

والنبوة تختتم، بينما الخطر يبقى . .

في السورتين الأخيرتين من القرآن يتحدث عن «التماس الملاذ من الشر» وهى تحذير لمحمد ﷺ خاتم أنبياء التوحيد الذى أكمل نبوة إبراهيم عليه السلام، واليومان الأخيران فى الحج يمضيان فى منى حيث يجب علي الواحدمنا أن يقاتل، وحيث حذر الله إبراهيم عليه السلام «أبو الأنبياء»....

أنت..!

أيها السائر علي طريق محمد ﷺ وملة إبراهيم عليه السلام،عليك أن تفهم الإشارات وليس فقط أن تقلد الحركات ..

إلى أين ستذهب بعد منى ؟!..

أيها الحاج ..!

قبل أن تغادر منى إلى ديارك دعنا نجلس ونقرأ السورتين الأخيرتين من القرآن لنكتشف أي خطر كان نبينا المنتصر ينذرنا منه ..

دعنا نصغى إلى ذلك الوحى لنعرف ما الذى أخبر الله به رسوله الحبيب ﷺ حتى ينشد

الملجأ منه :

﴿قل أعوذ برب الفلق .

من شر ماخلق .

ومن شر غاسق إذا وقب.

ومن شر النفاثات فى العقد.

ومن شر حاسد إذا حسد﴾.

هنا يشير الله تعالى إلى الأعداء الأجانب والغرباء عنك وعن بلادك الذين يجب عليك أن تحاربهم ..

ففى ظلمة الليل حيث يستحيل كل شيء إلى غموض .. يمتد ظلام الشر ويغطى وادى منى ومشهد عرفات..

وتضيع فى حلكة هذا الليل البهيم ..

تأمل المشعر الحرام ومثال الإيمان فى منى .

فى الواقع أنت في منى لكنك لا تدرك ولا تبصر قضايا هامة.. معك الحب لكن لاتعلم لمن !..

ومعك الإيمان ولكن لاتدرى بمن!

ضحيت بابنك لكن ليس فى سبيل الله ، وإنما أمام الشيطان !..

الظلام فى كل مكان !!..

نعم رميت .. ولكن لم ترم الشيطان وإنما الملائكة !!..

وذبحت .. ولكن ذبحت إنسانا وليس كبشا !!..

وأديت السعى .. ولكن ليس رغبة وإنما تجاوبا مع شد لجام العدو!!

وبدأت الطواف .. ولكن لم تتجه بنيتك إلى الله وكأنك تدور فى حلبة على أنغام القرود!!..

إن الطغيان فى كل مكان : غاسق إذا وقب!

هناك مؤامرات خفية وأخرى مثلها جلية يقوم بنسج خيوطها الساسةالأذكياء وغاسلوا الأدمغة والثرثارون والنمامون الذين يبتغون إزكاء الفتنة والفرقة والبغضاء ..ليحلوا «القبضات المرتفعة» محل «الأيدى المتشابكة»!..

إنهم يتآمرون ليبدلوا العلائق..

حتى يصبح أخوك هو عدوك، ويتظاهر عدوك بأنه أخوك ..

إنهم يقطعون كل وشائج القربى ،ويلحقـون الشلل بكل القرارات، ويضعفون إيمانك، ويلبسون الدين ثوب الطائفية،ويشيعون الفرقة بين الجماعة..

وبذلك يسلس قياد كل الطوائف للصليبية«الإمبريالية» غاسق، وعملائها«النفاثات».

أخيراً: الحساد..!

تلك الفئة التي يجب أن تفكر فيها بإمعان.

هذا النمط من الأشـخاص ليسـوا مثل ذلك النوع المريض الـذى يكتم غيرته فـى قلبه، لكنه النوع الحاسد.

ليس هو بالأجنبى "الطاغية «غاسق»، والذى يعـمد إلى إنفاذ إرادته بالقوة الظاهرة، وفي نفس الوقت هذا الحاسد هو دون العميل أو «النفاثة» الذى يعمل خفية من أجل سيده أو من أجل المال...

كلا! .. إنه من المعـارف أو زميل أو قريب أو مـخادع أو دميـة تقترف الخيانة وتتظاهر بالصداقة...

وهو قاتل يزعم البراءة ، أو مفسد لا تحوم حوله الشبهات...

أو هو ذلك الذي يصنع المتاعب لاإراديا مدفوعاً بأشد الأمراض استعصاء على الشفاء: الحسد...

هذه العقدة تظلل الثورات المنتصرة، وتصـدّع جند الحرية فى تفانيهم وفدائهم، وتبث الأحقاد الدموية بين الأصدقاء..

والمحصلة هي أن يصبح المؤمن الصادق دمية بين الكفار..

إن الكفار ليحكمون هذا الأداء بذكاء يحجب عن الناس الوعي بخططهم (١)!..

ولهذا ترى أن خيـمة الطغيان المظلمة قد نصبت في منى إلى القرب من الكمين الذي يتربص منه العملاء!..

لكن ماذا عن ذلك الحاسد المريض الذى لا يبدو عليه أنه العدو؟!..

---

(١) هناك حـقيقـة يشيـر إليهـا المؤلف وهي عملية توجيه تيارات الفكـر والحركة داخل البلدان الإسلامـية والعـمل على تطويرها لصـالح دول العـالم الأول (أوربا وأمريكا) وتجنيد العـمـلاء لهذا الـغرض الدقيق الخطير والمستمر. (المراجع).

إنه – رغم احتمال كراهيته للعدو أكثر منك– دمية!..

إنه – وفقا لمصطلح الشر– فى آخر المواقع؛ فهو يمثل الصنم الأخير الذى يرمى فى اليوم الأول..

إنه العدو الخفى لإيمانك ورجائك!..

***

هنا مرة ثانية يتواجد الثالوث:

غاسق : الطاغية القاسى .. الصنم الأول

نفاثة : العميل الذى يفسد الأخلاق والأفكار.. الصنم الثانى.

حاسد : عين الطاغية ودمية العملاء والصديق العامل فى خدمة العدو .. الصنم الثالث.

مهما يكن..

فليس من العسير جداً أن تهزم هذه الشرور..

انتظر حتى تبزغ أول أشعة الفجر .. مبددة الظلام.. ناشرة الضوء على وادى منى، إنها ستشعل النار فى خيمة العدو وتطيح بالظلمة والجهل..

والعميل المختبئ خلف الصخور سيضطر للفرار..

وتبقى عقدة الحسد وحدها لا تمس، ولكنها. سوف تدفن فى قلوب أصدقاء مرضى!..

***

كما يلاحظ الإمام الفخر الرازى أن سورة الفلق تشير إلى صفة واحدة من صفات الله وهى: الرب..بينما سورة الناس تشير إلى صفات ثلاث..

هذه دلالة على أن هناك عدو أخطر يحتاج إلى جهد أكبر حتى يتم التخلص منه.

فى سورة الفلق يصف الله تعالى نفسه بـ: رب الفلق..أى رب الفجر.

والآيات فى السورة تصف الظلام، وقوى الظلام فى عدائها للشمس، ولكنها ستموت بالشروق..

أما فى سورة الناس فإن الله تعالى يصف نفسه بـ: الرب، وبـ: الملك، وبـ: الإله وهى ذات القوى الثلاث أعداء الإنسان التى تعيش بينهم وتدعى أنها ربهم:

﴿قل أعوذ بـ: رب الناس .. ملك الناس.. إله الناس﴾

سورة الفلق تشير إلى هذا العالم، وإلى المجتمع حين تسيطر عليه قوى الظلام من الذين

يعملون فى السر –وعن إدراك– لغسل أدمغة الناس ..

كما تشير إلى الذاتيين والخونة وهى تتحدث عن ثلاثة مصائب تحل بالمجتمع:

الظلم والظلام .. الفساد والانحراف .. حب الذات والخيانة

وفي ذلك من الذى سيضحى؟!

الحركات الثورية .. والمجتمع الإنسانى .. والبشرية.

أما سورة الناس فهى تحدثنا عن نظام اجتماعى، وبنى اجتماعية..

تحدثنا عن القوى الحاكمة التى تصنع قرار الناس .

إنها تشير إلى العلاقة التي تربط بين الناس وربهم أو أباهم الروحى..

إنها تخبرنا بالشر الحقيقى والعدو الطبيعى للناس..

إنها تخبرنا من الذى سيضحى به هنا ..

ليس المجتمع البشرى ولا الإنسان ولكن الناس أنفسهم !..

إن الأصنام تصنع وتعبد، وهم يدعون لأنفسهم خصائص ألوهية متميزة ويضعون أنفسهم فى مكانة بين الله والناس ، وليس بين الناس والطبيعة، أو بين الناس والعالم ..

ومن ثم يصبح ذووا العقول البسيطة من الناس عبيدا لهم.

علي النقيض مما يرى بعض المتعلمين ممن يبحثون عن الحقيقة بين ثنايا الكتب والمخطوطات أكثر من نشدانها فى الواقع، فإن الشرك والتوحيد لا يمثلان نظريتين فلسفيتين، ولا مناظرة تجرى فى معبد..

لكنهما يعيشان ويرتبان آثارهما فى حياة صاحبهما وفى الطبيعة المحيطة به..

وهما –التوحيد والشرك– فى قلب حركة وكفاح الشعوب: الاجتماعى والاقتصادى، وعبر كل الحقب والأزمنة ..

وبكلمات أخرى فإن الشرك هو العقيدة التي سيطرت فى التاريخ ..

نعم إنه أفيون الشعوب!!

ومن الناحية الأخرى فإن التوحيد هو الدم والعون والفطرة والمرشد للشعوب..

إنه العقيدة التى أوذيت فى التاريخ.

إنه لمن أعظم وأسوأ وأخفى مآسى الإنسانية والتى لم تفهم بعد جيداً من قبل العديد من المفكرين **استعباد الشعوب بذات وسائلهم للتحرر! وتقتيل وتعذيب الناس باسم**

مصدرهم الوحيد للحياة الكريمة!.

كيف؟!..

بالخلط بين عقيدة وأخرى؛ شأن الشرك الذى يتخفى فى ثياب التوحيد، والذى تمثل فى أكبر منافقي التاريخ: إبليس المتنكر فى صورة القديس!

التوحيد فى خدمة الشرك .. والأب الروحى ممثل الشيطان .. وأخيراً الخناس المخادع عدو الناس.

فى سورة الناس تتكرر كلمة الناس عدة مرات..

من هؤلاء الآباء الروحيين الذين يعيشون بين الناس ويملكون هذا السلطان النافذ؟

من هؤلاء الطغاة الذين يعصون الله ويستخفون بحقوق الناس؟..

للمرة الثانية تظهر الطواغيت الثلاثة: الثالوث!..

التى هى ملك لله وحده كما وُصِفَت فى سورة الناس.

إنهم يغتصبون المواقع الثلاثة التي هي :

التوحيد: وحدة الصفات..

الشرك: تعدد الصفات .

التثليث: قابيل القاتل الذى يظهر بثلاثة أوجه ويحكم أطفال هابيل ..

هناك قابيل واحد ، وفرعون وقارون وبلعم هم وجوهه..

إنهم ليسوا ثلاثة أشخاص ، ولكن ثلاثة أوجه.

المدهش أنه فى كل تاريخ التثليث يرمز للإله دائما برأس واحد له ثلاثة أوجه!!..

***

فى غابر الزمان كان الناس أمة واحدة متآخية، وكانوا شركاء فى أنهار الأرض وغاباتها وكل له نصيب مساوٍ لأخيه فى خيرات مائدة الطبيعة الحرة.

صيد البر وصيد البحر كان وسيلة جلب الطعام اللازم للبقاء ..

والله وحده هو المالك، والبشر كلهم متساوون.

لكن .. جاء قابيل وصار مزارعاً وادعى لنفسه ملكية الأرض..

ومن ثم استعملت الحواجز والضوابط.

لقد خرقت الوحدة!

واستبدت عبادة الله الواحد بعبادة الآلهة المتعددة..

وظهر قابيل بثلاثة أوجه حيث عبده الناس من دون الله .

مثلث مشؤوم: التثليث..

إنه مقبرة كل الرسل والمجاهدين والشهداء.

مقبرة تتمثل فى أغلال التهديد المشؤومة التى تحاكى سلاسل العبودية التى استغلت – من قبل–لإخضاع عباد الله المغلوبين ليكونوا عبيداً للحاكم ..

إن الثالوث أشبه ما يكون بالشركاء الثلاثة فى شركة واحدة:

حيث يقوم الأول بالدعاية والإعلان..

ويتولى الثانى سرقة ما فى جيبك..

بينما يعد الثالث نفسه للمشاركة فى الأرباح.

هذا الشريك الثالث هو الذى يتظاهر بمظهر رجل الدين الذى يهمس فى أذنيك بما يزعم أنه «كلمة السماء»:

(يا أخى! كن صبوراً ودع هذه الدنيا لطلابها وكابد المعاناة فيها حتى تدخل الجنة فى آخرتك..

حتى وإن مت جوعاً املأ قلبك بالتسامح! إن الذين شغلو أنفسهم بهذه الدنيا سيعلمون أن الجزاء فى الآخرة سيكون لأولئك الذين اعتصرهم الفقر والطغيان! إنهم سيحسدونك على سعادتك تلك المرجوة فى المستقبل!! لا شئ يمكن أن ينجز وكل ما يصيبنا هو قدرنا المقدور مسبقا؛ السعيد سعيد فى بطن أمه والشقي شقي فى بطن أمه .. إن أى رفض هو معارضة لمشيئة الله ولهذا فكن شاكراً قانعاً بما عندك ودع الحكم لك فى الدار الآخرة ! كن صابراً ولا تشكو فقرك وقهرك لا تفقد أجرك يوم القيامة ! تذكر أن حق إصدار الحكم إنما هو لله فقط وليس للناس، وفى الدار الآخرة وليس فى هذه الدنيا.

أى حكم ينبغى أن يصدر من الله وحده وهو أحكم الحاكمين، ومن ثم فكن يقظاً حتى لا تخجل يوم القيامة حيث ترى الله الرحمن الرحيم يعفو ويصفح عن الطواغيت الذين لا يمكن أن تعفو أنت عنهم فى هذه الدنيا.

كل واحد مسؤول عن خاصة عمله .

إذا أردت أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر يجب عليك؛ أولا أن تكون محقا وعالماً وذا تأثير، وإذا استشعرت أن ذلك خطر عليك فإنك غير ملزم فى القيام به)..

هكذا الأصدقاءالثلاثة وثيقى الصلة ببعضهم ..

وقابيل -صاحب الأقنعة الثلاثة- هو إله التثليث الأبدى..

هؤلاء الثلاثة لا يهم أن يعملوا تحت راية الإسلام أو تحت راية العداء له !..

باسم التوحيد أو باسم الشرك!..

أولئك هم الذين باسم الإيمان صنعوا الدساتير والقوانين ليتحكموا في الناس أبد الدهر وفى كل مكان!..

الطواغيت الثلاثة هى وجوه قابيل الثلاثة ..

ذلك المالك الذى قتل أخاه هابيل الراعى، وأصبح هو من بعده مسؤولاً عن أطفاله اليتامى وأضحى القاتل وريثاً للضحية!..

الغريب أن كل الأنبياء الإبراهيميين والذين دعوا إلى التوحيد والعدل والورثة الحقيقيين لهابيل كانوا جميعاً فى مراحلهم الأولى رعاة، وكذلك نبينا محمد ﷺ آخر هذه السلسلة من الرسل كان راعيا للغنم بقراريط[1]، وقد قال: «ما من رسول إلا رعى الغنم».

كان من سنن قابيل الماضية محاولة أحفاده: الذئب .. والثعلب .. والفأر المستميتة وعبر التاريخ وراثة أبناء هابيل: الناس..؛ ليجعلوا منهم دواباً بوسائل من القهر والاستغلال والطغيان!..

هذا يفسر لنا معنى ظهور «راعى» أو «أمي» كل حين ينهض من قلب الصحراء ويترك قطيعه ويصبح قائداً ومحرراً لضحايا سلطان قابيل ..

وهكذا يكون الرسول راعياً وليس فيلسوفاً أو متعلماً أو زعيماً فى أحد مراكز الحضارة أو أحد معاهد العلم أو أحد التجمعات العلمية أو أديرة الدين!..

إنهم ينهضون ليقرعوا بعصيهم رؤوس الذين يدعون أنفسهم «آلهة الأرض» من نوعية الذى قال: أنا ربكم الأعلى.

وهنا ندرك جمال المعنى الذى تحملة كلمات النص القرآني:

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾[2].

---

(١) قراريط مكان بالقرب من مكة. (٢) الحديد : ٢٥.

يساند إنسان مسؤول قضية العدالة ويدعو فى الناس بالتكافل والتآخى والجهاد فى سبيل العدل وأن يكونوا على وعى بما يدور فى مجتمعهم حتى تتحرك القوى المسيطرة فى الحال بدوافع ملء القلب لتغتال هذا الفرد .. أو تغتال شخصيته.

لكن بعد جيل أو أكثر نفس هؤلاء القتلة سيتفجعون على الفقيد ويصبحون ورثة رسالته ويستأنفون قيادته:

﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم﴾(١).

ومهما يكن الأمر، فإذا كان النبى هو المنتصر فى المعركة فإن المعارضة ستهادنه مؤقتاً وتبدل مواقفها وتغير أقنعتها ريثما يتم لها الانتصار وترث كتابه وسيفه بعد أن تدور العجلة بجيل جديد.

***

* هناك قابيل واحد بسبعة وجوه وسبعة ألوان وسبعين قناعا وسبعة آلاف اسم وسبعون ألف حيلة !

* هناك قابيل واحد هو القاتل الذى اغتال أخاه !

* هناك قابيل واحد هو الذى يملك وكل الناس مملوكه له !

* هناك قابيل واحد هو الحاكم وكل الناس عبيد له !

* هناك قابيل واحد هو الذى صنع عدوين من أخوين !

* هناك قابيل واحد : يجعل المتساوين غير متساوين ! .. هو الذى قسم الناس إلى عرقين والمجتمعات إلى طبقتين، وجعل من التاريخ قطبين، وأحال الوحدة إلى تثنية .. ذلك الفعل الذى يعبر عنه القرآن بكلمة «الاستكبار» .. ذلك الفعل الذى يجعل الناس ضعافا متهالكين ! . .

* هناك قابيل واحد يمارس الاستكبار منطلقا من قواعده الثلاثة..

١ – السلطة : السياسة .. الطغيان .. فرعون .

---

(١) آل عمران : ٢١.

٢ – إراقة الدماء : الاستغلال.. الاقتصاد .. قارون.

٣ – الخداع : الإيمان .. الاستغلال . بلعم .

إنها طبقة واحدة حاكمة لها ثلاثة أوجه : ثلاث قوى .

* هناك قابيل واحد يحيل التوحيد إلى التثليث ! .. وهو يوظف لذلك كل الأساليب : السر أو العلن، الإيمان أو الكفر ، التوحيد أوالتثليث، حكم الفرد أو القانون، الديكتاتورية أو الديمقراطية، الاستعباد أو الحرية، الإقطاع أو البرجوازية، الإيمان أو العلم، الروحانية أو المادية، الفلسفة أو التصوف، السعادة أو المعاناة، التحضر أو البدائية، التقدمية أو الرجعية، المثالية أو الواقعية، المسيحية أو الإسلام، السنة أو الشيعة، ..

هذه وجوه تغدو وتروح، قد تلقى بهم من الباب ولكنهم يتسللون إليك من النافذة! ..

علي سبيل المثال : فإن الرق قد تمت معارضته، لكن آلت السيادة للإقطاع، وأضحى الأرقاء فلاحين، ثم هزم الإقطاع بثورة عظيمة(١) ، ولكنها تبدلت رأسمالية وصار الفلاحون عمالا فى المصانع .

بعون من الله وقوته أغرق موسى عليه السلام فرعون فى البحر ووارى قارون باطن الأرض، وسخر عصاه فى مقاومة السحرة، ولكن بعد حين عاد فرعون الذى غرق فى البحر للظهور مرة أخرى وخرج من نهر الأردن .. لقد سمى نفسه «شمشون»! وحمل عصا موسى بدلا من السوط، أما سحرة فرعون فقد أصبحوا أحفاد هارون ورفاق موسى وحملوا الكتاب المقدس بعد أن تخلوا عن حبال السحر التي كانت بأيديهم، وصار «بلعم باعورا» هو الزعيم الروحى !، وقارون استولى علي الكنز وأضحى أمينا على ملة التوحيد!، ثم تعاضد ثلاثتهم : «فرعون وقارون وبلعم» وحولوا فلسطين إلى أرض الميعاد، وصار الأقباط القدماء هم الإسرائيليون الجدد!..

ثم ظهر عيسى عليه السلام ونسخ اليهودية وقضى على إمبراطورية الرومان، لكن قيصر بدل اسمه إلى البابا وحل أحبار النصارى محل الإكليريوس وكاردينالات الفاتيكان حيث دعى القصر كنيسة! وقام جوبيتر(١) مقام عيسى عليه السلام .

وجاء محمدﷺ وهزم أكاسرة الفرس وأقاصرة الرومان، وأبطل عمل القساوسة

---

(١) يقصد الثورة الفرنسية.

(٢) كبير آلهة الرومان.

والكهان وألغى مشروعية أرستقراطى العرب والفرس، ولكن لم يلبث أن استبدل الملوك والأكاسرة بالخلفاء وحل الأئمة والوعاظ محل القساوسة والكهان(١) .

أما طبقات الزرادشتية الاجتماعية - من الدهاقنة والقياصرة والأرستقراطيين والإقطاعيين فقد أسمت نفسها أحفاد الإمام وأصحابه ، وخلعت على نفسها ألقاب الأشراف والنبلاء..

لقد أبدلت امبراطورية الرومان ومملكة الفرس أسماءها فأصبحت خلافة خلفاء الرسول ﷺ وألبست المذابح مسوح الجهاد!، وصار السلب زكاة !، واعتبرت معاناة الناس هى مشيئة الله!..

أما أسرة النبى ﷺ فقد توزع مصيرها بين القتل والنفى والسجن، وضاع حق الذين اتبعوا رسالته بإحسان، وأصبحت خلافته من نصيب عائلة أبى سفيان والعباسيين .

أما على كرم الله وجهه الذى اقتفى سنته وأدى أمانتها بحقها هو وأنصاره، وقاوم منهم من قاوم بغى الخلفاء لمدة قرنين ونصف، إلا أنهم جميعا راحوا فى عداد الشهداء..

لقد تصدوا لتقاليد الجاهلية وأرستقراطيةالخلفاء ، ونذروا أنفسهم أتباعا لعلىّ، وبذلوا أرواحهم للقضاء على النظم الفاسدة الجائرة، وكانت شعارات حزبهم الشيعى:

الإمامة والعدالة ..

لكن فجأة ....أصبح الخليفة شيعيا !!!

وتبوأ ملك الصفوين (٢) مكان القيادة من الشيعة ، وصار بيت الخليفة هو قصر السلطان..

وهكذا دواليك .....!!

***

فى أوروبا استطاعت الثورة العلمية أن تهزم الكنيسة، وأخذ العلم مكانة الدين،

---

(١) لانتفق مع المؤلف فيما يذهب إليه فإنه محمد ﷺ بخير مادام فيها رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقولون كلمة الحق (المراجع) .

(٢) يفرق المؤلف بين التشيع الصفوى والتشيع الحقيقى ، فيدين الأول وينكره ويرى أنه تشيع منحرف ظالم يجب مجاربته محاربته آثاره، ويؤيد الثانى لأنه يعود إلى المبادىء الإسلامية الأصيلة المستمرة من النبى محمد ﷺ وآله والذين اتبعوه بإحسان. (المراجع).

وتحولت مدارس اللاهوت القديمة إلى الجامعات الحديثة، ونفى المؤمنين إلى أركان المعابد القصية بواسطة العلماء...

وقد ترك بلعم الكنيسة وظهر فى الجامعة!

الثورة الفرنسية ألغت الإقطاع كنظام، لكن قارون الذى هزم فى الريف اندفع فى المدينة لينشىء البنوك!..

ورغم أن فرعون قد فصلت عنقه المقصلة الثورية ودفن تحت ثرى قصر فرساى بنظام التصويت الديمقراطى، إلا أنه انبعث من جديد مستعينا بثروة قارون وسحر بلغم.. وجاء ديجول إلى السلطة!

لا يمكننا ـ أبداً – أن نتخلص من أبناء عمومتنا من أحفاد قابيل الذين يعاضدون بعضهم البعض..

فإذا هزمت أحدهم وقبضت على يده فإن الآخر يحاول شراءك بماله، وإذا فشل هذا فسيحاول الثالث خداعك باسم العقيدة!، وإذا لم تفلح أيا من هذه الحيل فإنهم سيحاولون الوصول إلى غايتهم مسخرين فى ذلك العلم أو الفن أو الفلسفة أو الإيديولوجيا، وإذا أثبتت إحدى هذه الوسائل تأثيرها فإنهم عندئذ يلجأون إلى النحيب والبكاء والتوسل والدعاء.. أى ببساطه ـ مايشغل عليك ذهنك ولا يدعك تعى ما الذى يحدث.

إنهم سيزيفون لك الاعتقاد بأن أقدار التاريخ هي وحدها المسؤولة عما فى هذا العالم من كره وبغضاء وخطايا، وأن كل الحب والخير إنما هو فى الحياة الآخرة!....

وإذا لم تجد معك أياً من هذه الأساليب فإنهم سيحولونك إلى مستهلك مجنون، ومن ثم تجد نفسك تنفق كل ماكسبت من أجل أن تعيش حياة الرفاهية، والنتيجة المترتبة هى الحصار المستمر بالديون، والاستغراق فى العمل طيلة اليوم بلا جدوى ومن أجل لاشىء.

هل هذا هو مانسميه: حياتنا ؟!

أن تعمل وتعمل حتى تحصل على مزيد من الرفاهية ،وفى ذات الوقت تقتل نفسك بالعمل ليلاً ونهاراً ثم تجدك تجرجر رجلك متخلفا سنوات إلى الوراء !!!

كل قيم الإنسانية والتحرر تمت التضحية بها على الطريق الذى ينشد الرفاهية... لقد بيعت حياة البساطة واليسر ليُشترى بثمنها حياة الترفيه..!

وأخيراً.....

إن لم يجد كل ذلك : فهناك الإعلام الطاغي بالجنس وموسيقى الجاز (الصاخبة العنيفة) وهناك الهيروين، والماريجوانا، و L.S.D، وغيرها من آلاف الطرق الشيطانية الأخرى .

بالخطأ أو الصواب يتم استيعابك حتى يبقى عقلك مشغولاً، وتمنع من التفكير في حاضرك وتُدفَع في شُعَب الضلال مؤمنا أو غير مؤمن !..

***

نحن يتامى التاريخ المساكين المقهورين في الأرض..

نحن أحفاد الشهيد هابيل والمؤمنين الصادقين بالله، وأبناء آدم الذين أعطوا المثال للنوع الأسمى وناصروا الإخاء والحب والمساواة وتمثلوا الطبيعة الخالصة النقية للإنسان وكانوا صورة حقيقية للتوحيد والوحدة والسلام ..!

نحن ذكرى الحقبة السعيدة في التاريخ حينما كان هناك المجتمع الواحد الذي يأكل من مائدة الطبيعة المشتركة ..

لكن .....

كل ذلك قُبِرَ يوم استشهد أبينا هابيل وسفكت دماءه أخلاق الخداع وصار الضحية البرىء لرأس المال ولثروة قابيل ...

الرغبة في الثأر تبقى دائماً أملاً وأمنية في قلوبنا ..

نحن ننتظر بشوق عظيم اليوم الذي نرى فيه نبينا يساعدنا في حمل قضيتنا !..

التوحيد هو السراج المميز، وهو شارة النبوة التي حملتها أكتاف رعاة الغنم عبر التاريخ.

لقد تناوبوا حمل هذه الراية من جيل إلى جيل ومن يد إلى يد :

من يد هابيل إلى يد إبراهيم ومنه إلى يد محمد ومنه إلى الحسين، ثم مضت من بعد لكل مكان ولكل زمان حتى اليوم الأخير .. يوم العدل !

لقد رفعتها ثورة العدل باتساع العالم ، وحملتها قيادة : ضحايا الطغيان وورثة المستضعفين في الأرض..

وهكذا كانت تسير الراية وترسم على الأرض الخط الأحمر القاني بدماء الشهداء.

وفي المقابل والنقيض تمضي راية الكفر التي تجسد القسوة والجهل والشراهة للدماء من يد إلى يد حتى تبلغ دائما آلهة الزيف: الطواغيت الثلاثة..

الإيمان والكفر ليس عصبية، ولا تشتيت للوحدة ولاهما تصور بسيط أو حجة من حجج المتصوفة والفلاسفة، ولكنه التوجيه الذى يؤدى بالبشرية إلى سبيل الرشاد والرفعة أو يؤدى بها إلى سبيل الضلال والغي ..

إن معنى هاتين الكلمتين: «إيمان وكفر» واضح نفس الوضوح الذى نراه فى الفرق بين الكلمتين «عدل .. وظلم» .

أما بقية النعوت والأوصاف فهى زائفة وخاطئة وقصد بها أن تشكل علينا وتخدعنا.

كن حذراً حتى لا يخدعك الزيف..

إن التاريخ مليء بالنفاق لدرجة أنه أباح لأحفاد قابيل - وحدهم - حق الحديث عن العدل والإيمان ! أما أحفاد هابيل فلم يستطيعوا الحديث حتى عن أبيهم الشهيد !!

استمع فقط للقرآن الكريم، ولا تستمع لأولئك الذى يتحدثون عنه .

ذلك أن بعض ذرية قابيل أصبحوا من مفسرى القرآن الكريم ، ومن ثم فعليك أن تقرأ النص نفسه وتفهم ما يقوله لك بنفسك لأنه الوثيقة الوحيدة التي حفظها الله بمنأى عن تدخلهم .. استمع الى القرآن لتتعلم منه قصة البشرية ومعنى النبوة:

﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس﴾ (١)

إن الله تعالى لم يرسل الأنبياء لأن هناك خلاف طفيف فى الرأى، أو لمجرد التحيز! كلا .. لكن لمقصد عميق ، ودون أية شبهة غير جعل الإيمان والكفر ...

ولتستمع إلى الله مباشرة يوضح لك ذلك :

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾(٢)

ابحث فى القرآن مرة ثانية تجده يخبرك بجلاء ووضوح ، ليس بصورة نظرية فلسفية ولا بلغة معقدة ولا حتى بمصطلحات مركبة من حواش لاهوتية ..

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) الحديد: ٢٥ . نص الآية : «ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز» ويلاحظ أن القرآن يذكر الميزان والحديد فى نفس الآية ، وتشير الآية إلى استعمالات عسكرية للحديد إلى جانب استعمالاته كقوة اقتصادية فهو فى ميدان المعركة وفى الحياة اليومية .

بل نزل بكلام بسيط يستطيع أن يفهمه حتى الأمي من الناس :

﴿الذين آمنوا يقـاتلون في سـبيل الله والذين كفـروا يقـاتلون في سـبيل الطاغـوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾(١).

نعم ! قاتلوا أولياء الشيطان .. الطواغيت الثلاثة الزائفة :

يامن تريدون أن تنصروا الله ..

يامن تحمون أنفسكم من الشيطان الثابت بالحكمة والوعي ..

يامن تقاومون إغواء الشيطان وحيله بالتقوى (٢)..

إن العدو كالعنكبوت الذى ينسج بيته من المال والسلطة ممهداً الطريق لاصطياد البشر ثم مص دمائهم.

لا تخف من الموت، ولا تهرب، ولا تؤجل المعركة، بل تزود بالتقوى وعندها لن تواجه أثرا الخطر (٣)..

يامن يدين بالتوحيد، وبالمسؤوليه تجاه دم هابيل ..

يامن يحمل عبء الأنبياء علي كتفيه.: الكتاب .. والميزان .. والحديد .

أنت يا ابن آدم.

أنت أيها القائم بين الناس ....

---

(١) النساء : ٧٦.

(٢) التقوى هي أن تتقي وليس أن تهرب كما شاع في الفهم السلبي الذي انحسر إراءه المعنى الإيجابي السليم.

(٣) في كل آيات القرآن يوصف الشيطان بأنه عدو خطير وقوي إلا فى سياق هذه الآية حيث ورد ذكره موسوما بالضعف .. لماذا؟ .. ذلك لأن القرآن هنا يتحدث عن القتال ويخاطب المجاهدين الذين لاتعني لهم أنظمة الطغيان أكثر من بيت العنكبوت، وقد أطلق الله تعالى اسم العنكبوت على إحدى سور القرآن التي حدثتنا عن قصة النبى الذي يقوم وحده بين الناس يجاهد القوى العظمى الحاكمة، وقد وصف القرآن القوى التي مثلت الشرك ببيت العنكبوت الذى نسج لاصطياد الناس ومص دمائهم وهى مع ذلك واهنة واهية، وقد أسقط الله قصور الطغيان ومعابد السحر بالأيدى المجردة وليس بالسلاح، ولكن الذى جعل هذا التأثير لهذه المصيدة ليس قوتها ولكن جهل الناس ...إن الناس يجب أن ينالوا قسطا من المعرفة الصحيحة مما حمله الأنبياء من الحكمة والنور ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾.

أيها القدوة في : القدرة .. والحرية.. والوعى ...

انشد الملجأ عند الله : رب الناس ... ملك الناس ... إله الناس ... وحِبِّ الناس ! .

أيها الحاج ....

يامن مشي على درب الشهادة الأحمر بالعبور من عرفات إلى منى ..

يامن خطا على مقبرة الصنم الأخير : طاغوت العقبة ..

يامن سما إلى ذروة الحرية بالتوحيد....

يا من هزم الشيطان فى أرض منى ..

أيها السائر على سنة إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ . ..كن يقظاً وتزود بأقصى انتباه ..

إنك على خطر دائم : خطر قابيل والخوف من عودة الآلهة الزائفة ..

الرسول فى خطر، ورسالته فى خطر فكن حذرا من الطواغيت وانشد الملاذ عند :

رب الناس .... ملك الناس ... إله الناس

حتى الآن هناك ثلاثة أوثان تمثل شيطانا واحداً! . قابيلواحد لكن :

حتى الآن هناك ثلاثة أوثان تمثل شيطانا واحداً !.

قابيل واحد .. لكن :

﴿من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس ﴾

من .. أوما هو «الوسواس» ؟!

القاموس يشير إلى ذلك الذى يهمس بالشائعات والأراجيف أو بالإيحاء بها . .

وكذلك يعني «الحالة السوداوية» ذلك المرض الذى يقتحم الذهن ويقلب وعى الإنسان إلى شعور باللامعنى .

إن الذى يقترحه عليك يتسلل إلى لاشعورك..

إنه يظهر لك ويتحدث إليك، وتستطيع أن تستمع إليه ولكن ليس بأذنيك ..

تستطيع أن تراه ولكن ليس بعينيك ..

إنه خناس .

ماهو الخناس ؟!

القاموس يشير إلى كل ما يقودك إلى الضلال وكل مايجذبك ويستغرقك ويتبعك

ويخدعك حتى وإن حاولت أن تهرب منه يلح على تعقبك .

مـا الذى يفـعله الوسـواس الخناس ؛ ذلك الذى يشـعل فـيك الإغـواء ويوحى لك بالمقترحات الشريرة !

ماهو الإغواء ؟!

القاموس يحدد معناه بالذى يزين عمل السيئات والفساد..

ذلك المرض الذى يقتحم على المرء حكمتـه ويحيله إلى حالة من الهذيان والاضطراب واللامعنى .

من أى شيء خلق الوسواس الخناس ؟!

قد يكون من الجن ، وقد يكون إنساناً..

ما هو الجن ؟!

هو قوة غامضة خفية ذات طبيعة غير بشرية تحاول التأثير في تصرفات الناس .

ما أوضح التعريف الذى أعطى لها ، لكنها اليوم أشد ذكاء وأشد سحراً....

هذه الطواغيت الثلاث خفية ، ولكنها تظهر وترى ..

إنها تذهب لتبدل ألوانها وتعود .

قد تهزم .. ولكنها تنهض مرة أخرى :....

اليوم الرأسـماليه والاستعمـار المباشر يبـدل جلده ويظهر فى ثوب الاستعمـار الجديد، ويعـود الطـواغـيت الثـلاثة لاسـتـلاب البـشـرية من جـديـد وغـسل الأدمـغـة بمعونةالخبراءوالتكنولوجيا المتقدمة .. كما يقول البروفسير شاندل :

(إن الخطر الأكبـر على البشـرية اليوم ليس تفـجير القنبـلة النووية ولكنه محـاولة مسخ الطبيعة البشرية).

عناصـر الإنسانيـة فى البشـر تدمر في سـرعة هائلة بما ينتـجه التسابق غـير الإنسـانى، ويتـحول الإنسان إلـى آلة في مظهر بشـر لم يخلقهـا الله ولم تنشأ فـي الطبيـعة !، ويصـير الإنسان عبداً لم ير سيده ولم يعرفه، ولاحرية له سوى بذل وسعه ليكون العبد الأفضل .

لقد تمـت مبادلتـه بالمال ، لكنه هو نفـسه الذى دفع الثـمن !، وغدا واقـفا لسـاعات في طابور طويل أمام أوكار اللصوص [1] الذين ينتظرون عودته حتى تتم سرقته.

---

(١) إشارةللبنوك .

لقد أضحى الإنسان عبداً غير قابل للنمو؛ يأخذ كل مايحتاجه بكل ما يملكه!..

إنه مؤمن فقط بالتبادل المادى ،وعقيدته تدفعه لأن يدفع أكثر مما يأخذ..

إن حياته صممت له على طراز معين قبل أن يولد ، وبذلك صارت عبارة عن مهمة تؤدى أكثر مما هى حياه حقيقية..

الآن أمامه فرصة لاكتشاف العالم، ولكنه أضاع إيمانه والإنسانية .. للأبد (١) ..

إن المأساة فوق مستوى التصور، وفطرة الإنسان تتغير، والشياطين الثلاثة المغوية لا تملك قوة السلاح وسلطان الذهب وخداع المسابح فحسب بل يسخرون أيضا قوة العلوم الخارقة، وسحر الفن المبهر، وطاقة الآلة المتفوقة لإمضاء حيلهم وخططهم المحكمة ..

اختفى من حياتنا المعاصرة نير العبودية الواضحة، لكن ـ فى واقع الأمر ـ الناس مستعبدين بسلاسل غير مرئية ..

نعم هم أحرار فى أن يدلوا بأصواتهم فى الانتخابات لمن يريدون لكن قبل أن يقرروا ذلك بزمن طويل فإن الوسواس الخناس ينفث فى قلوبهم .

مأساة اليوم هى إحدى نتائج الاغتراب (٢) الذى يعني أن تكون غير قابل للصداقة ولا مبالياً!.

وهى حالة غير صحية تغطى على وعي المرء وشخصيته الحقيقية ...

اختفت بالتدريج صور الطغيان السياسي والتفرقة الاجتماعية وطرق الاستغلال الغربى القديمة، ولكنها عادت فى أشكال أبشع كما تختبىء اليوم الأنظمة الرأسمالية تحت أقنعة الليبرالية والديمقراطية..

انتهى زمن السلب والنهب التي مارسها التتار وطبقها قانون جانكيز خان المسمى بالياسق، ولم نعد نرى طغيان وبربرية التعذيب التي ارتكبها تيمورلنك وهولاكو (٣) ..

ولكنها عادت اليوم فى مظهر أشد خداعاً باسم التحديث والحضارة حتى تخفى الوجه

---

(١) الكلام مأخوذ من كراسات شاندل (Les Cahiers)

(٢) ترجمة لمصطلح (Alienation).

(٣) التتار قبيلة من أشد القبائل وحشية ، وجنكيز خان قائد وحد هذه القبائل، والياسق قانون هو خليط من الأديان السماوية والأديان الوثنية والأهواء الشخصية، وتيمورلنك وهو لاكو كلاهما قائد مغولى من التتار حكموا بعد جنكيز خان ومن ذريته.

الحقيقي للإستعمار.

اختفى هذا النمط من الحكام المستبدين محترفي القتل من قدماء الاستعماريين في ثنايا العالم الثالث ولكن نظمهم الاقتصادية والسياسية وعلاقاتها الاجتماعية والتعليم والفن والأخلاق والحرية الجنسية والمذهبيات والإعلام الدعائي والأدب والموضة والجنون الثقافى والعدمية والاستهلاك بلا حدود والتغريب كلها تعاود الظهور فى خفاء تحت ثياب الاستعمار الجديد..

لقد ظهروا مرة أخرى ولكن ليس على صورة الجند فى القواعد العسكرية، ولكن فى الإدارات والمكاتب وفى الشوارع والأسواق!..

وهكذا بطرائق غير مرئية لها أياد خفية وعلاقات سرية تشكلت بنية الاقتصاد والنظام الاجتماعى والمعتقدات والفطرة ،والروح والقيم والتوجهات وعقول الناس.

إنه الاغتراب...

فى هذه القرون الأربعة عشره منذ مهبط الوحى لم يتجل معنى هذه السورة الرائعة (الناس) كما يتجلى الآن ....

لخمسة قرون مضين من حياة البشرية لم يكن «الوسواس الخناس» يفتك بالإنسانية بإغوائه الظاهر والخفى ولم يكن يحطم أفئدتهم بضلالاته كما يفعل الآن..

آه ..! نعم !....لم يكن يفعل ذلك أبداً على النحو الذى يمارسه الآن...

إن معانى هذا الوحى الكريم تتجلى بوضوح عبر أحداث التاريخ ومسيرته ! . .

إن علماء الاجتماع والمفكرين الذي يعيشون فى انسجام وألفة مع الاستعمار الجديد والرأسمالية يعرفون جيداً أن هذه الأنظمة (قدتشعل النار فى السوق كله إذا أرادت منديللا)[1].

إنهم يعرفون كيف يمسخون العلم ليبلغوا به غايتهم، وكيف يطورون الجهل باسم الحضارة..

إنهم يعرفون كيف يوظفون الجنة والوسواس لإفساد إيمان الأمم ومعتقداتها وإرادتها ووعيها ويتركونها خالية الوفاض فارغة القلب، ومن ثم تتهيأ للدخول فى حالة الاغتراب،

---

(١) غالبا هذه عباره مقتبسه من نص مسرحى شهير. (المراجع).

حيث ينظر المرء إلى ذاته بسلبية وسوء ظن، وحيث تكون عملية مسخ الناس محكمة تؤدى بهم حتما إلى أن يكونوا مجرد مستهلكين مقلدين ولا شيء سوى ذلك (٢) .

* * *

اليوم .. هناك ثلة من أهل الوعي- العاملين من أجل الإنسان- الذين لاتحد نظرهم التصورات التقليدية الطائفية، ولم تسبق إلى عقولهم المشكلات المحلية أو التحيزات التاريخية أو المهنية أو التعليمية أو الأحوال السائدة . .

وهؤلاء لم يقنعوا بدور المراقب للعمليات السياسية المتقلبة، كما لم يكتفوا بإصدار التقويمات السطحية لما يقع للناس .

ومع كل ذلك وفوقه استمروا أمناء على الإنسانية وحقوقها..

أولئك هم الذين يدركون ما فعله الاستعمار من نهب لموارد الشعوب الطبيعية فى العالم الثالث، ومن تمكين للعملاء الطغاة من السيطرة على مقاليد الأمور فى هذه الأقطار ..

كل هذه مآسى حقيقية جاءت من الأجانب إلا أن المأساةالكبرى تتمثل ـ مع ذلك ـ فيما لحق بقلوب الناس من تبديل، وهو ماأسماه الله تعالى : صدور الناس .

وهذه المأساة الكبرى لا تقترب منها أى مأساة أخرى ولا تبلغ مبلغها من الأهمية حتى ولا تلك المأساة المتمثلة فى خطر حكام الشر الخارجى المشار إليه بكلمة «غاسق» فى سورة الفلق وكذلك خطر الحاسد المتجسد فى الفساد والغيرة المضطربين المرتبكين من بعض الناس . !..

إن أفظع مأساة تهدد سكان العالم اليوم هى أن غربة الإنسان المعاصر أصبحت غير إنسانية بمعنى أن الوسواس لم يعد يدمر الجسد فحسب بل الروح أيضا، وهو مايفزع المفكرين ذوى الوعي والمسؤولية فى هذا العصر؛ إذ أن المفكر يعرف الناس بذات القدر الذى يعرف به الوسواس، ويعرف بالتالى ،ويفهم مدى قوة الاغتراب...

فهو يرى الإنسانية تذبح كلما أسيء إلى حقوق الإنسان . . .

وهو يرى مقترفى الشرور وصناع الأوثان الذين لاتتيسر للكثيرين رؤيتهم بعد أن غيروا وسائلهم من سلاسل العبودية المادية إلى التسلل فى الخفاء أو الكمون داخل القوى الغامضة

---

(١) تحدث عن هذه الحالة بإسهاب فى مؤلفه «العودة إلى الذات» الذى نشرته الزهراء للإعلام العربى.

والوسوسة فى القلب، وكل ذلك فى هدوء وستر .. يلجون إلى العقل ويربكونه ثم يغيرون الشخصية ويمسخون شخصا فى شخص آخر وهذا هو الاغتراب!..

نعم ! الخطر يرقد هناك فى مكمن كأسوأ مايكون .....

ليس خلف الصخر أو في شعاب الجبال، ولكن في أعماق قلبك أو ضميرك ..

إن الكمين لم ينصب من أجل اقتناص حياتك ومالك، ولكن من أجل إيمانك وإنسانيتك، ومعرفتك وحبك ونصرك وجهادك وميراثك من تاريخك وطريقك حتى لا تكون مثل إبراهيم ولا تبقى فى السبيل الذى يقربك من الله تعالى .

عدوك ليس دائما مسلحاً أو فى شكل عسكرى، وليس بالضرورة أن يكون أجنبيا معروفاً .. فقد يكون أنظمة، أو مشاعر أو خواطر، أو ملكية ، أو أسلوبا فى الحياة، أو نوعا من العمل، أو الاستعمار، أو غسل الأدمغة باسم الدين، أو الاستغلال، أو العلاقات الاجتماعية، أو الدعاية ووسائل الإعلام ...

وقد يكون الاستعمار الجديد ، أو البيروقراطية، أو التكنولوجيا، أو التسيير الذاتى .. وفى بعض الأحيان هو الاستعراض والقومية والعرقية.. وفى أحيان أخرى النازية البرجوازيه والعسكرية!..

وقد يكون هو المتعة (الأبيقورية)، أو هو الأفكار المثالية، أو هو المادة (المادية)، أو هى الفن والجمال (الرومانسية)، أو هو العدم (الوجودية)، أو هو الأرض والدم(العنصرية)، أو هو البطل والسلطة المركزية(الفاشية) أو هو الفرد (الفردية)، أو هو المجموع (الاشتراكية)، أو هو الاقتصاد (الشيوعية)، أو هو الحكمة (الفلسفة)، أو هو الشعور (الغنوصية)، أو هو السماء (الروحانية)، أو هو البقاء (الواقعية)، أو هو التاريخ (الجبرية)، أو هو مشيئة الله(القدرية)، أو هو الجنس (الفرويدية)، أو هو الغريزة(البيولوجية)، أو هو الآخرة (الإيمان)، أو هو الخرافة، أو هو الفائض الاقتصادى....

هذه أوثان الشرك الجديد والحضارة الجديدة، تضاهى اللات والعزى وأساف ونائلة لقريش الجديدة.

كيف إذن تدرك معنى العبادة الخالصة والمحبة الخالصة لله تعالى ؟...

ماهو مدى عظمة معنى عقيدة التوحيد وجلال نبوته ؟.....

الناس اليوم أقدر على استعمال العقل عن طاعة الله تعالى ؛لأسباب ترجع إلى نفوذ العلم الحديث الذى جرف هؤلاء الناس إلى منحدر إهمال العقيدة، وبذلك أنكروا الله تعالى وخرجوا على ربقة الإيمان .. وفى المقابل لم ينجزوا شيئا بذلك العصيان لله . ورفض عبادته سوى أن الشرك الجديد له آلهة أكثر حقارة بكثير من أصنام الشرك القديم (أصنام عصر الجاهلية) !

العرب القدماء كانوا يعبدون تماثيلاً صنعت من الذهب ورصعت بالجواهر، وكانت أصنامهم رموزاً للقوة والجمال والوفرة والخير والإحسان.. وبذلك كانت موقرة ومقدسة أما الشرك الجديد فهي اليوم أشد وضاعة من أعضاء جسد الإنسان السفلى .. وقد بلغت الآلهة الثلاثة الزائفة الأبدية اليوم أعظم ما بلغت من الطغيان..

حيث لم يعد فرعون فرداً وإنما نظاماً..

ولم يعد قارون واحداً ولكن طبقة...

أما بلعم فقد أقلع عن كلام الإيمان وصار يتحدث عن العلم والتكنولوجيا والفن والأدب !..

من العجيب أن يتحدث القرآن فى السورة قبل الأخيرة «الفلق» عن شياطين ثلاثة لهاخاصية واحدة فذة، بينما فى السورة الأخيرة «الناس»يتحدث عن شيطان واحد له ثلاث شخصيات: الرب، الملك ، الإله...وهذا أشد خطراً. . .

الشياطين الثلاثة هم تعبير عن القهر وغسل الأدمغة والخداع والاغتيال والخطايا الجسيمة... وهي الأشياء التى تسيء للإنسان وحقوقه وحريته وتستعبد الناس وتستبقيهم فقراء وجهلة، وبطريقة أو بأخرى تضغط الناس وتستبقيهم تحت وطأة ثقيلة من هذه المآسى..

أما أكبر المآسى اليوم فهى محاولة القوى العظمى المعادية للإنسان المثابرة على إحداث شلل للقيم الإنسانية عن طريق إفراغ أفئدة الشعوب؛ من أجل استغلالها لمصلحتها .. بعد أن علمها التاريخ أنها لكى تأخذ بزمام الأمر الاقتصادى والسياسى لابد لها من تحطيم تلك القيم التي يرعاها الناس، ثم مسخ طبيعتهم البشرية ..

بكلمات أخرى: لابد من تغريبهم (Alienaion).

هذا الشيطان هو أشد سوءاً من أسلافه..

على الرغم من أنهم جميعا لهم ذات القدرة على إثارة المتاعب فى أى مكان ..

إن نظام الثالوث «الخناس» هو تحطيم الفطرة البشرية، وهو نفس الخطر الذى يهدد ضمير الأفراد المسؤولين .

هذا هو عدو الإنسان المبين يذهب ويجيء فى كل مكان بثلاثة أوجه، وفي كل مرة بقناع مختلف !...

«الوسواس» هو السم القاتل الذى يحقن به الجسم البشرى .. برؤوس ثلاثة ـ ومائة وجه .. للخناس .

لم يستطع الشيطان إغواء آدم وإخراجه من الجنة إلا بعد أن تمثل له فى صورة ثعبان .

«الوسواس» هو الذى أنجب الشياطين الثلاثة...

«والخناس»هو ممثل هذه الأصنام الثلاثة .. وإغوائه أشد دماراً ومسخاً ..

* * *

يعلمنا كتاب الوحى الكريم فى السورة الخاتمة أن الوسواس أكبر خطراً من الأصنام الثلاثة وأن الوعي الربانى هو أن نقطع الطريق على الليل، ونزيح سدوله بالفجر الذي نقاتل فيه القوى الثلاثة التي استعبدت الإنسانية ..

لمقاومة القوى الشيطانية للخناس يجب التماس الملاذ فى التوحيد ..

ولتحطيم بناء الشرك فى وعي الإنسان والمجتمع لابد من الاعتصام بالقوى الثلاث:

الربوبية .. والملك .. والألوهية

لله العلي القدير

وبذلك نستطيع أن نقيم مجتمع هابيل !...

مجتمعا يقوم على المساواة والوحدة بين جنس الإنسان ..

يجب أن نبنى مجتمع القدوة الذى كانت تنشده نبوة إبراهيم، وحملنا مسؤوليته النبى الخاتم محمد ﷺ.

لقد فهمنا أبعاد المأساة ونحن مسؤولون عن حلها...

وورثنا سنة إبراهيم، ومن ثم يجب علينا أن نعلمها للأجيال الجديدة المثقفة التي تجاهد فى سبيل العدالة الاجتماعية.

نعم !.. بمعية القرآن وآل النبى ﷺ [1] والحج أعطينا مسؤولية عظيمة .

* * *

ظلام الشر محيط بالعالم ومتحكم فيه ..

والساحرات الماكرات أقوى من ذى قبل . .

والوسواس الخناس أمضى وأشد مسخاً . . .

* أنت أيها المعتصم بمقام إبراهيم وبوحى النبى الخاتم ..

إنك مكلف بمواصلة حمل الرسالة وأدائها . .

* أنت أيها الإنسان الواعى، وخليفة الله فى الأرض، ووريث محمد ﷺ . . .

عليك أن تجعل الرسول قدوتك وزعيمك، وتكون أنت نفسك قدوة للآخرين . .

* أنت أيها المكلف ببناء الأمة . . .

لقد بنيت عقيدتك على أساس : الكتاب . . والميزان . . والحديد .

* أنت يامن سترسخ العدالة الاجتماعية فى الأرض . .

قاتل العدو، وانتصر للبرىء. . .

* أنت أيها المجاهد . .

اصغ إلى بكاء الناس وأنين المضطهدين، وإلى صوت الذين يتعوذون من ظلام الوسواس الخناس . .

* * *

كان «توينبي»[2] يرى أن الحضارة الإنسانية مهددة بأعداء مؤبدين : (النشاط المحموم الغبى من أجل الاستهلاك ثم الاستهلاك ثم الاستهلاك) . . .

«ماركوز»[3] حذر من أن الإنسانية أصبحت (ذات بعد واحد كأنها آلة) . . .

---

(١) يقصد التعاليم المأخوذة عن النبي ﷺ والفهم الذى أتاه الله لبعض ذريته وأرى الأفضل أن يكتفى بمعية النبى صلى الله عليه وسلم (المراجع) .

(٢) أرنولد توينبى مؤرخ وفيلسوف إنجليزى، وصف نفسه بأنه مؤرخ ينظر فيما وراء التاريخ. ولد عام ١٨٨٩ وكان مجال بحثه هو الحضارة.

(٣) هربرت ماركوز ولد ببرلين عام ١٨٩٨م، والإشارة هنا لمؤلفه الشهير : الإنسان ذو البعد الواحد. الصادر فى عام ١٩٦٤.

«إراك فيروم»[1] مثل «ديجون»[2] كانا يبحثان عن مدينة (الشخص الواعى) . .

«كامو»[3] رفع صوته أن: (الطاعون صار وباء فى طهران وفى معبد الحضارة)، وأن : (أطفال أبرياء يموتون من أمراض غامضة). . .

«جون أسولت» كان يتحدث عن الأمير المسلح الذى يعانى من المرض الذى لاشفاء منه. . .

ذلك النحات الواعى الذى صمم التمثال فى ساحة مدينة نوتردام فى شكل رجل تتساقط أطرافه، وقد وصف الكاتبان «إليوت»[4] و«جوايس»[5] هذا التمثال الذى يحمل اسم «تريزى»والمزدوج الطبيعة والمأخوذ من أقاصيص إغريقية قديمة بأنه : (رمز للإنسان المعاصر) . . .

«إيجون أنسكو»[6] وصف الحالة المأساوية للإنسان الذى خرب روحه الخناس ومسخه فى صورة وحيد القرن . . .

«كافكا»[7] يصف الرجل الذي يفترض أنه يمثل الله [*] وقد أعطى روحه ثم أظهره كيف لحق به التغيير التام .

نعم !. . .إن صورة دوريان فري ليست فى صورة كاندل ولكنها صورة الرجل

---

(١) إيراك فيروم ولد عام ١٩٠٠م بفرانكفورت وعاش فى ألمانيا الغربية، ويعتبر من فلاسفة علم الاجتماع والتحليل النفسى وقد عمل بعدد من الجامعات الأمريكية، وقدم إسهاماً متميزاً فى دراسة ماركس وفرويد والمقارنه بينهما، كما أن له جهدا هاماً فى مجال البحث فى علم النفس الدينى .

(٢) ديجون لوتروى من فلاسفة الإغريق فى القرن الثالث قبل الميلاد .

(٣) البير كامو ولد عام ١٩١٣م وتوفى ١٩٦٠م وهو روائى فرنسى ومنظر اجتماعى وسياسى وقد وضع الخطوط الأساسية لنمط من الوجودية الفردية المؤسسة على الأحادية الإنسانية .

(٤) إليوت كاتب أميركى معاصر .

(٥) جوايس كاتب بريطانى معاصر .

(٦) إيجون أنسكو كاتب رومانى ولد عام ١٩١٢م فى جنوب رومانيا .

(٧) كافكا ولد عام ١٨٨٣ وتوفى عام ١٩٢٤ واشتهر برسائله فى الفلسفة الإنسانية والأدب والتي نشرت بعد موته وأحدثت ضجة .

* خليفة الله. (المراجع).

المغترب[1] .

***

اغتنم انبثاق نور الفجر واهرب . . أنت أيها الضحية المدرك للمأساة !. . إن ظلمة الليل ناشرة أجنحتها السوداء على المكان كله .

إن الساحر الماكر يوسوس فى صدور الناس . .

إن الحاسدين دمى فى أيدي السحرة . . والليل والأصدقاء يساعدون العدو . .

ابحث عن ملاذ عند إله الفجر لتقتل الظلام بمشرق الشمس عند عرفات . . ثم ترقب: إن آلهة الزيف عادت لترتدى بذكاء قناعاً من زحام الجماهير . . متقلدة أسلحة خفيفة...أنت ياوريث هابيل . . اثأر لاغتيال أبيك . .

قابيل لم يمت . .

أنت ياوريث آدم . . يامن سجدت له الملائكة . .الشيطان ينتقم الآن !

اهرب من شره ذى الثلاثة أوجه ، الألوان السبعة ، والسبعين ألف حيلة ! . .

الذي يوسوس فى صدور الناس . . التمس الملجأ منه عند الله إله الفجر . . رب الناس ملك الناس . . إله الناس . .

وأنت أيها الحاج . . ابق فى منى بعد عيد الفداء ، وارم الأصنام الثلاثة سبع مرات في كل يوم :

كل يوم مثل يوم الأضحية . .

كل شهر مثل ذى الحجة . . .

كل أرض مثل مني . .

الحياة مثل الحج . .

***

(١) إشارة لرواية الكاتب الإنجليزي أوسكار وايلد التي تتبدل فيها صورة جميلة لإنسان بصورة أخرى بشعة.

العودة

انقضى زمن البقاء فى منى . .

انتهت المناسك خلف أسوار مكة . . قريبا من حدودها ! . .

بقى أمامك طواف واحد وسعى آخر[1] يتاح لك أن تؤديهما فى أى وقت قبل اكتمال ذى الحجة . .

انتهت مناسك الحج وهذا هو كل المطلوب منك أن تؤديه . .

أنت أيها الحاج المغادر . . العابر من الفصل الأخير للحج . . لبيت دعوة إبراهيم . .

وفررت من الدائرة الفاسدة لحياتك اليومية الفردية . .

وجئت فى الوقت المحدد للميقات . . وأصغيت للوحى الكريم . .

وخلعت عنك ثيابك ولبست ثياب الموت الأبيض . .

تركت بيتك ووطنك وجئت ضيفا على بيت الله وأرض الجهاد . .

لقد عاهدت الله عندما صافحت يمينه في الأرض ودخلت إلى محيط الطواف . . وأفنيت النفس فى لجة نهر الحب . . .

أنكرت الذات وغسلت نفسك وبذلت وسعك بحثا عن الماء فى قمة الجبال . . ثم هبطت من مكة إلى عرفات . .

ومن فصل إلى فصل تمضى من المشعر إلى منى . .

ورجعت إلى الله بالرجوع إلى مكة . . .

اكتسبت الوعي تحت شمس عرفات المشرقة . .

وجمعت أسلحتك فى جنح ظلام المشعر الحرام .

وفي ذات الوقت عبرت إلى حدود منى فى صحبة الآخرين . .

وانهزم الشيطان ساعة هجومك الأول ، وسموت إلى ذروة الشرف . . تلك المرحلة التي تعلو على الشهادة . .

---

(١) المؤلف يقصد غالبا بالطواف طواف الإفاضة لأنه يعود ويذكر فى آخر هذا الفصل طواف آخر وهو طواف الوداع، والسعى المقصود هنا سعى الحج لأنه متمتع (المراجع) .

وأخيراً . .

ضحيت بكبش في خاتمة هذا الجهد . ! .

إلى أين وصلت بعد هذه الرحلة العظيمة المقدسة وبعد التسامي إلى مراتب سمو الإنسان، وعبر أخطر وأفزع دروب الخلق : الطواف (الوحدة) .. والإيثار . والجهاد . . والشهادة . . وقتال إبليس . . وهزيمة أرض الحب . . ؟

ما الذى فعلته ؟ ! .. تضحى بكبش . . لماذا ؟ ! . . ماهى الفلسفة فى ذلك .. ؟ ! ما السر فى ذلك ؟ . . ماذا يعني أن تقتل كبشا فى ختام الحج ؟ . .

لا أستطيع أن أقول . . .

لكن فلندع الله سبحانه يجيب على التساؤل :

﴿فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر﴾ (١) .

﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ (٢) ..

* * *

أيها الحاج . .

إلى أين أنت ذاهب الآن ؟ . . عائد إلى بلادك .. وإلى حياتك.. وإلى عالمك؟ هل ستعود من الحج على ذات الدرب الذي جئت منه؟.. كلا لا يمكنك ذلك البته!

لقد أديت دور إبراهيم في العرض الرمزي..

إن أداء هذه الشخصية الفذة وتجسيدك لها كأنك هو وكأنه أنت لهو الأداء الجيد.. إذا أحسنت الأداء في الحج فإن العرض سوف ينتهي وأنت لم تؤد عمل إبراهيم بعد.. وكم من مؤدي لم يمنح البقاء للشخصية المجسدة ومات!..

لقد أديت دور إبراهيم.. ليس مجرد أداء، وإنما عبادة وحب..

لا تعد لأداء دورك بعد أن أديت دور إبراهيم ! . . .

لا تترك بيت الناس ! . .

لا تعزل نفسك ! . .

---

(١) الحج: ٣٦.

(٢) الحج: ٢٨.

لا تبدل ثياب إحرامك بثيابك السابقة . .

غادر منى إلى مكة وخذ معك إسماعيل !. . .

أنت الآن مثل إبراهيم الذى كان أعظم مقاتل فى تاريخ البشرية للأوثان . . أنت مثل إبراهيم مؤسس ومرسخ التوحيد فى هذا العالم وحامل مسؤولية القيادة فى شعبه والقائد المتمرد الذى كانت روحه تعاني وقلبه يحب وأفكاره تضىء . . .

الفأس بيده .

والإيمان يرتفع فى قلب معقل الكفر . .

والتوحيد يتألق فى وسط الشرك . .

إبراهيم – قاهر الأوثان - يجىء من بيت آزر صانع الأوثان ويحطم الأوثان والنمرود .

لقد قاتل ضد الجهل والطغيان والسلبية ، وتمرد على صمت المعاناة وعلى « الأمن» المؤسس على القهر، وصار قائداً لقومه ومؤسساً لحركته وحياته واتجاهه وأمله وغايته وعقيدته الموحدة . . .

أنت الآن مثل إبراهيم . .

قاتل الآن مثل إبراهيم . .

قاتل ضد النار . . نار الطغيان والجهل . .

وبذلك قد تساهم فى إنقاذ شعبك . .

النار هي قدر كل المسؤولين من الناس ، وهى واجبك في القيادة والخلاص . .

لكن . . .

الله جعلها محرقة للنمرود . .

ولكنه زرعها حديقة لإبراهيم وأتباعه . .

لن تحترق، ولن تغدو رماداً . .

ولكن ذلك يعلمك الاستعداد للقفز إلى النار فى سبيل الله ثم . .

ثم لن تكون منها . . دع نفسك فى النار لتمنع الاحتراق عن الناس فى المرحلة الأشد إيلاماً فى الشهادة . .

أنت الآن مثل إبراهيم . .

ضح بإسماعيلك . . ضع السكين على عنقه بيديك . . خلص أعناق الناس . .من

الناس دائما يضحى، بم على أبواب قصور السلطة ومعابد التعذيب! . .

ضع السكين على عنق ابنك ، وبذلك ستأخذ السكين من أيدى القتلة . .

لكن الله سيدفع فدية إسماعيلك . .

لن تقتل إسماعيلك ولن تفقده . .

هذا كله ليعلمك أنه يجب عليك الاستعداد للتضحيه بحب إسماعيلك بذات يديك في سبيل إيمانك (فى المرحلة الأشد إيلاما من الشهادة) . . .

والآن أيها الحاج العائد من طواف الحب وأنت فى مقام إبراهيم . .

لقد وصلت الآن إلى النقطة التى بلغها . .

عندما وصل إبراهيم إلى هذه النقطة كانت حياته ملأى بالجهاد:

حطم الأوثان ، وقاتل النمرود، وصبر على ناره ، وجاهد إبليس، وضحى بإسماعيله، وهاجر، وتشرد، وتوحد، وتعذب . .

الدرب من مرحلة النبوة إلى مرحلة الإمامة هو الانتقال من الفردية إلى الجماعية، وهو الذهاب من بيت آزر إلى حيث يبنى بيت التوحيد (الكعبة) . .

فى خواتيم حياته، وقد اشتعل الرأس شيبا وتقدمت به السن بنى إبراهيم بيت الله ووضع الحجر الأسود، وكان إلى جواره مساعده إسماعيل يحمل إليه الحجارة . .

ياللروعة . .

إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة : أحدهما نجى من النار، والآخر نجى من الذبح، وكلاهما خليفة الله فى الأرض، وكلاهما مسؤول أمام الناس . . .

إنهما مهندسى أقدم معبد للتوحيد فى الأرض، وأول بيت وضع للناس : البيت العتيق . بيت الحب والعبادة. . البيت الحرام . . رمز خصوصية السماء .

أنت فى مقام إبراهيم . .

أصبت مكان وقوفه آخر خطوة في صعوده إلى المعراج فى أقرب الطرق إلى الله . .

أنت بانى الكعبة . . ومهندس بيت التحرير . . ومؤسس التوحيد . . وعدو الأوثان . وعدو الملأ من زعماء القبائل . . والمقاتل ضد الطغيان والجهل والكفر . . الآن ابن بيتا . .

ليس لنفسك، ولا حتى ليكون سقفا لأولادك، ولالإسماعيلك . . كلا ولكن بيتا

للناس، ومأوى لأولئك المشردين الذين لا مأوى لهم من الذيـن جرحوا وعذبوا أو كانوا من ضحايا الـطغيان وليس لهم مكان يأوون إليه ولا جـهة يذهبون إليهـا . . النمرود يطاردهم حيثما ذهبوا . .

لقـد أضحى الحـرم سراجـا منيـرا فى ظلمة الليل، وصـوتاً داوياً شق صـمت الطغيـان الرهيب. . إنه آمن وطاهر ومفتوح للناس . . عيال الله .

كل مكان عداه غير آمن، وغير مشرف . . بعد أن صارت الأرض ماخوراً كبيراً للبغاء إنها أيضا مسلخ حيث غدا كل شيء ممنوع سوى البغي والتفرقة . .

* * *

أنت واقف الآن بمقـام إبراهيم ومقـدم على أداء دوره لكي تحيـا مثله وتكون مـهندس كعبةإيمانك.

خلص أفراد شعبك من حيواتهم الفارغة.

انفخ روح جـديدة في أجسـادهم بدلاً من روحـهم الآسنة لتغير حـيـاتهم التي تشبـه المستنقع العميق بعد معاناتهم الطغيان والجهل والظلام..

حثـهم على أن يقفوا على أقـدامهم واعطهم اتجاها وهـدفا وناد فيهـم حتى يأتوا للحج والطواف..

بعـد الولوج في الطواف انبذوا الذاتيـة وطهروا الـنفس وتبينوا شـخصـية إبراهيم لقـد عاهدتم الله على اتباع طريقه والله على ذلك شهيد..

* * *

لكي تكون مثل إبراهيم:

* اجعل أرضك حرماً آمناً، إنك في الأرض الحرام..

* بدل زمانك واجعله كالأشهر الحرام كأنك دائماً في مقام إبراهيم..

* اجعل الأرض مسجداً حراماً..

* فقد جُعِلَت الأرضُ كلهُا مَسجداً لله..

* وانظر! .. هل الأمر كذلك؟ .. إن الأمر ليس كذلك.

(انتهى)

الفهرست

الكتاب

- يتعرض للحج «الفريضة الخامسة». باعتباره معان وليس مناسك.
- له شكل صور درامية بعرض فريد لم يسبق له مثيل.
- يبث في نفس القارىء روح جديد، وشحنات سخية من التجديد والإحياء.
- إنه كتاب ينير – ككل مؤلفات الكاتب – من واقع القهر والظلم والتخلف في المجتمع الإسلامي.

الكاتب

. رجل ليس صنوا لأحد.

. مؤلف ليس كالمؤلفين..

. كلماته ليست كالكلمات.

. وأفكاره ليست كالأفكار..

. إن كلماته حية.. باعثة. مؤثرة.

. وإن أفكاره فريدة.. هادفة.

. إنه منظر ثورة القرن الرابع عشر الهجري الإسلامية.

. إنه الشهيد الدكتور علي شريعتي..

٧٠٠ قرش